١٠٤٠١ الأسطار

(رواية)

الدكتور صادق مكي

دار الهادي

الانتظـــار

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٨٩٦٣٢٩/ ٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الانتظار

«روايـــة»

بقلم
الدكتور صادق مكي

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

ـ ١ ـ

. . ويجلس أحمد إلى جانب أبيه، في عشية أحد الأيام الماطرة المثلجة من أيام الشتاء، حيث كانت الأسرة تجتمع حول الموقد لتتدفأ من برد الشتاء القارس، في مقدّمة للنوم الذي كان يبكّر في غزو العيون في كل أمسية من تلك الفترة من السنة. . وكان الوقود حطبات نحيلات، وأُخَر من أرومات الخشب التي صادف أنها كانت مبتلة بمياه الشتاء، فما كان اشتعالها سهلاً، وكانت تملأ الغرفة بالدخان الذي يتكاثف حتى تعمى معه الأبصار، فيلجأ أهل البيت إلى النفخ في المدفأة بالتناوب حتى تشتعل النار بعد همود، وقد يلجأ هؤلاء إلى فتح الأبواب، حتى يخرج الدخان من البيت، محتملين برد الشتاء مرغمين، إذ يبقى البرد ـ على علاّته ـ مقبولاً أكثر من «العمى» الذي تبلى به الأعين، ولو لحين. . . حتّى إذا ما انقشعت غيمة الدخان من سماء ذلك المنزل. وعاد أحد المتضرّرين من فتح الباب ليوصده من جديد، سمعت الأسنان تصطكّ، ورأيت الأجسام ترتجف، وراح الأطفال يفركون كفاً بكف، وراح غيرهم يبحث في الموقد عن جمرة ليوقظها من سباتها تحت الرماد، علها تبعث في البيت بعض الدفء للعين على الأقل، إن هي عجزت عن أن تبعث الدفء في الأجسام الباردة. . .

وتسارع الأم لنجدة الأولاد بصورة خاصة، فتأتي ببعض حرامات الصوف، وتضعها بين أيديهم... وتمتد الأرجل تحت هذه الحرامات، وتتشابك، وتتعارك، ويشدّ كل منهم طرف الحرام ليغطي جسمه ويؤمّن من الدفء ما هو بحاجة إليه... حتى إذا استتبّ الأمر، وهدأت ثورة الأيدي والأرجل، وما عادت أجساد الصغار النحيلة ترتجف، وعادت النار للاشتعال في الموقد. وانزاحت غمامة الدخان من سماء الغرفة.. عاد أحمد ليطلب من والده: وماذا حصل بعد ذلك؟ ويأتي سؤاله بنبرة فيها كثير من الرغبة في اكتشاف المجهول، ومعرفة ما خفي عليه من الأمور، وما كان يحبّ معرفته، وكأنه يشعر بلذة ما بعدها لذة وهو يستقصي أخبار القدامى ومآسيهم دون أفراحهم، إذ أن أحمد ما كان شغفاً بالاطلاع على أخبار القوم السارّة، هذا إن كان بين تلك الأخبار ما هو سارّ.

كان أحمد يسأل أباه: وماذا حصل بعد؟ وكنتَ تنظر إليه فترى حاجبيه مقطّبين حتى يكاد أحدهما أن يتصل بصاحبه، وترى عينيه محمرّتين، وكأنهما تغالبان الدمع، وتتّقدان بنيران تتطاير شظاياها في كل مكان، ومبعثها داخل ذلك الولد الذي اشتعل كأنه أتون نار حامية، وتحسّ في صوته وهو يسأل والده: (وماذا حصل بعد؟) وكأنّ سرّاً عظيماً جداً، عزيزاً على نفسه يريد أن يعرفه وأن يستجلي حقيقته، ويعرف الخبر اليقين فيه... كما تحس بأن الوالد يعاني من غصّة تكاد تخنقه، وهو أميل إلى البكاء، وإن كان ينتصر على

بكائه دون أن ينتصر على أحاسيسه ومشاعره، والعوامل المؤثّرة فيه والتي تجعله ينفعل كل ذلك الانفعال. . .

ويتابع والد أحمد السرد لأخبار الماضي الذي عاشه في أبشع صوره، وأشدها تأثيراً فيه، والتي آلمته أشد الإيلام، وتركت آثارها في جسمه وفي نفسه على حدّ سواء. ويتابع دون أن تكون له غاية غير الترويح عن نفسه، والبوح بمكنونات تلك النفس، لأن البوح بهذه المكنونات كان مما يفرّغ شحنة من الألم الذي كان يعتصر نفس ذلك الأب في صغره، وإن كان يزيد من ألمه، كحالة الإنسان الأجرب الذي يحكّ جسمه، ويحكُّ، ويجد في الحكّ لذة وإن كانت مشوبة بالألم، وتنتهي في كل مرة بتجريح جسمه وتؤلمه ألماً أشد من ذلك الذي كان يحس به قبل حكّه. . . وما كان والد أحمد يبغي من سرد أخبار الماضي أكثر من ذلك، كما أنه لم يكن يعرف ولا يقدّر أثر ما يقوله في نفوس الصغار، وفي نفس أحمد بصورة خاصة. وإن كنت تحس، لو سمعته يتحدث، بنقمة على الناس والأعداء والأتراك وقبلهم السلاجقة، وكل من ارتدى أرديتهم، وتزيّا بأزيائهم، وامتثل لأوامرهم وشارك عن قصد أو غير قصد في كل ما جرى لوالد أحمد وغيره من أهل عصره، ولآبائهم وأجدادهم في فترة من فترات التاريخ المقيتة التي مرّت على أهل هذه المنطقة. . . وإن كانت تلك النقمة تأتي أحياناً كثيرة فاترة، ولا فائدة فيها ولا غاية منها إلا إحساس بسيط مع المظلوم، والاعتراف له بأنه كان مظلوماً، والإقرار معه بأنّ الظالم الذي نجا في هذه الدنيا من

الانتقام والعقوبة، لن ينجو منهما يوم الدين، عند ذلك الديّان الذي ينتصف للمظلوم من ظالمه مهما كان هذا الظالم، ومهما طال الزمن.

وكان والد أحمد يسترسل في سرد أخباره، ويجيد في السرد، ويقف أحياناً عند الدقائق والتفاصيل... وما كان يدري أحد ما إذا كان في قرارة نفسه ينتظر أن يثمر هذا السرد في إيجاد «المنتقم» الذي يأخذ بثأره من أعدائه الذين نجوا من العقاب حتى الآن، وهم «أنصار الشيطان» كما كان يقول والد أحمد، وهم «الأبالسة والشياطين» الذين غادرت الشفقة والرحمة قلوبهم... كما يأخذ بثأره من ذلك الزمن الغادر الذي ما صفا له يوماً من الأيام...

وكان يقف طويلاً عند تلك الأيام التي تردّت فيها الأوضاع في بلادنا فقتلت أهله جميعاً، وأبقته وحيداً، يعاني من الجوع، والعطش، والوحدة، والفقر، والضياع... التي وصلت به إلى حافة الموت لولا أن الله لطف به، وسخّر له عمّه الذي اعتنى به ورعاه وضمّه إلى عائلته حتى انتهت تلك الأيام الصعبة، وعاود حياته بصورة شبه طبيعية مع ما فيها من الشوائب...

«وأصابنا الجوع حتى أننا لم نجد في بيوتنا ما نأكله: زرعنا القمح فصادره الأتراك وزرعناه بعدها فأكله الجراد، هذا الجراد الذي كان يصلنا أرجالاً تملأ السماء، فإذا حطّت على الأرض أتت على الأخضر واليابس، وتركت الأرض يباباً، ﴿فَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾، وصار الناس يخافون على أنفسهم من أن

يأكلهم الجراد هم أيضاً، فيغلقون أبوابهم، حتى إذا اطمأنوا أن أسراب الجراد قد تجاوزتهم، كانوا يفتحون الأبواب والنوافذ ليروا أن الجراد لم يُبق شيئاً، وأن بلادهم صارت غير البلاد، وأرضهم صارت غير الأرض وما بقي عليها غير تراب وحجر وكأن يد الإنسان ما امتدت إليها من قبل، ولا نبت فيها شجر ولا عشب، ولا مرّ عليها إنسان ولا حيوان.

وكان والد أحمد يجود في السرد، ولا يترك خبراً لا يتوقف عنده، ويرى السامعين ـ وبينهم أحمد يُصغون إليه في لهفة وذهول، فيؤنسه أن يرى أناساً يستمعون إليه ولو بعد فوات الأوان، أو أنه أيقن في قرارة نفسه أن لا أوان محدّداً لسرد أخباره، فهذه الأخبار لا تموت، كما أنه لا أوان يحد الحزن، وبخاصة إذا كان عميقاً متأصلاً في النفس، ولا شيء يحد الرغبة في الانتقام، وبصورة خاصة إذا كان هذا الانتقام يشكل ردة الفعل الطبيعية على الظلم الذي تجاوز كل حد. وكجميع أعمال الثأر الذي قد ينام طويلاً، ثم ينبعث فجأة ليحاسب الموتور واتِرَهُ على جريمة مضت عليها عشرات السنين. وقد تبقى العداوة بين الأمم والشعوب والعائلات والعشائر أجيالاً طويلة حتى تصير إرثاً يحمل وزره الأبناء الذين لم يكن لهم يد في الجرائم المرتكبة، ولا هم افتعلوها، ولا ساروا في ركابها، وحتى أنهم ما رضوا بها عندما سمعوا عنها... لكنه الثأر الذي عمرت به النفوس.

ويسكت والد أحمد عن سرد أخباره قليلاً، ويطأطىء، ثم

يغطي وجهه بكفّيه، ويطول به الأمر على هذه الحال، وجميع الحاضرين ينظرون إليه في ارتياب وقلق وقلوب تخفق، وتحصي عليه حركاته وسكناته... ويلفتهم رجفة تنتاب ذلك الرجل فيهتزّ رأسه بين يديه، ثم لا يلبث أن يشهق بصوت عالٍ، وهو ما زال يغطي وجهه بيديه، ولا يجرؤ أحد على سؤاله، ولا على التقدّم منه لمعرفة حاله وما يعاني منه... ثم لا يلبث ذلك الرجل أن يمسح وجهه بيديه، هاتين اليدين اللتين حولتهما الأيام كالغصن اليابس القديم، وشققهما برد الشتاء، وفتكت بهما الأوساخ... فتقرّحتا، وتعمّقت الأخاديد في داخلهما... حتى إذا ابتلّت هاتان اليدان بالدموع، مسح الأب بهما وجهه وعينيه، وأمرّ بهما على أنفه فحملتا ما فاض منهما من سيل دافق بسبب رشح الشتاء، وأكمل الرجل يمسح شاربيه ولحيته، ثم يرفع يديه، ويمسحهما بسترته، على الصدر وتحت الإبطين، ويكرر هذا العمل حتى يطمئن أن آخر بقاياه قد خلصت عن يديه، فيستوي في جلسته وهو على ما هو عليه من الحزن والكآبة، ثم يتابع في سرد أخباره في «لذّته» المعهودة، ويقول:

كنّا في البيت صبيين وبنتاً، فمات أخي الأكبر نتيجة مرض لم نعرف ما كان نوعه، ولا استطاع أحد أن يعالجه بالشكل المناسب، ولم يكن في محيطنا كله طبيب واحد، ولا مستشفى ولا دواء... فقضى مأسوفاً عليه.

ومات أبي وأمي في ظروف مشابهة، وما استطاع أحد أن يقدم

لهما شيئاً... وكنت آنذاك طفلاً صغيراً، وجاء عمي، فأخذنا ـ أنا وأختي ـ إلى داره، وضمّنا إلى عائلته عندما رفضت أن أدخل بيته أصرّ على بقائي مع أولاده، وخرج، ومنعني من اللحاق به، وصمّمت على العودة إلى منزلنا لأكون إلى جانب أمي وأبي وقد تركتهما جثتين هامدتين فيه، وقد عزّ عليّ فراقهما، وشعرت أن هذا الفراق لا لقاء بعده... أوكل عمي أولاده الكبار بي، وأدخلوني بالقوة إلى دارهم، وأقاموا عليَّ ما يشبه الحراسة حتى لا أغادر المنزل. أما أختي فقد تولّت أمرها زوجة عمّي وابنتاها، فأخلدت إلى نوع من الهدوء الحزين المشوب بالحذر والقلق مما يجري من الأحداث دون أن تكون قادرة على أن تفهم حقيقة ذلك الذي كان يجري عندنا.

وينصرف عمي، ويترك المنزل لا أعرف إلى أين، ولا ماذا سيفعل بالجثتين اللتين ما زالتا في دارنا، وما كان أحد هناك، ولا تجرّأ أحد على الاقتراب من دارنا ـ كما فهمت ذلك فيما بعد. وسعى عمّي جاهداً لدفن الجثتين فما وجد من يعاونه في هذا العمل، ولعل الناس كانوا يخافون العدوى وما كان هذا الذي أصاب والديّ فريداً من نوعه، ولكنه حصل لغيرهما من قبل. وكان قد حلّ المساء، فأغلق عمّي باب البيت على الجثتين وعاد إلى بيته وهو في حالة من الحزن والكمد، وعرفنا منه أنّه أجّل دفن الجثتين إلى الغد... قالها وهو يبكي بكاءً مرّاً، وبكينا لبكائه، وسكتنا جميعاً عندما سكت، حتى إذا كان الغد، استنهض همّة الرجال من

الأقارب وأهل القرية، لم يجد من يتجاوب معه غير رجلين عجوزين، فسارع إلى حفر قبرين وضع فيهما الجثتين، دون غسل ولا كفن، وعاد إلى المنزل... وهنا ـ يقول والد أحمد ـ راحت الصور تتوالى في ذهني سراعاً، فتخيلت ذانك القبرين صغيرين حقيرين، وتخيلت نفسي لو قصدت إلى المدفن لزيارتهما لما عرفت موضعهما، فالموتى كثيرون، والقبور عديدة، وكلّها سواء، ولا يستطيع الإنسان أن يميّز بينها ليعرف قبر إنسان عزيز على قلبه. وروّعتني فكرة مرّت بخاطري عندما تذكرت ما سمعت بالأمس، ومن عمّي بالذات، من أن كلاب القرية الجائعة أغارت على القبور، فنبشت واحداً منها، وسحبت جثة أحد الموتى وراحت تنهشها، وتسحبها في المدفن من مكان إلى مكان... وتخيلت أن مثل ذلك يمكن أن يجري لجثة أمي أو أبي، ففقدت صوابي وحاولت الإفلات من الحصار المضروب حولي والذهاب لتفقّد المدفن ومنع حصول مثل هذا الأمر ولو لغير أهلي، فلم أتمكن من ذلك...

ويصمت والد أحمد عن سرد أخباره المثيرة، والجميع صامتون، وعيونهم متعلقة بشفاه الراوي، وهم ينتظرون منه أن يكمل حديثه. حتى إذا ران صمت عميق، وعاودت الرّاوي حالته القديمة، وأجهش بالبكاء، رأيت الحاضرين يجهشون هم الآخرون بالبكاء، ويشاركونه حزنه على أهله الذي تجدّد هذه الليلة.. ثم لم يلبث والد أحمد أن مسح دموعه وسيلان أنفه... على نحو ما فعل في المرة السابقة، وقد انتابته موجة من الرضى عن النفس ظهر

أثرها على وجهه، وفي لمعان عينيه وفي صوته الذي لم يكن متهدّجاً هذه المرة عندما بادر الساهرين بالقول: ليقم كل منكم إلى فراشه، وغداً سأروي لكم أشياء أخرى مما جرى علينا في أزمانٍ ماضية.

ولم يجد الجميع بداً من الامتثال لأمر أبي أحمد، فيقومون إلى مضاجعهم ويقوم معهم أحمد، ولكنه كان ـ بخلاف كل الحاضرين ـ مقطّب الجبين، عابساً، محتقن الوجه، وكأنه يغالب دموعاً تحاول أن تقفز من عينيه ويقاوم ناراً داخلية تجعل أحشاءه تغلي غليان المرجل... ولكنه يمضي إلى فراشه لا يقول شيئاً... ترى بماذا كان يفكر أحمد؟ وما سبب انفعاله هذا؟ وما سبب ذلك الحزن الذي يسيطر عليه؟

ـ ٢ ـ

كان أحمد يشعر بلذة كبيرة وهو يسمع والده يروي أخبار ذلك الماضي البغيض، برغم ما كان يبدو عليه من الانفعال الخانق، والاضطراب الذي يمزق أحشاءه ويشوّش تفكيره. وكان ينتظر بفارغ الصبر أن يحين الموعد الجديد لرواية أخبار ذلك الزمن، على ما فيها من إزعاج وإغراق له ولغيره في أتون الاضطراب والقلق. حتى إذا حلّ المساء، وغابت الشمس، وقام أبوه بكل أعماله من علف الماشية، وإشعال نار الموقد، وصلّى ثم تعشى... يمهّد أحمد المكان حول الموقد، ويأخذ موقعه المناسب، إلى جانب المكان الذي اعتاد أبوه أن يجلس فيه، ويسارع إلى حلّ كل إشكال يرى أنه يعيق والده عن العودة إلى الحديث عن الحرب ومتاعب الناس أثناءها، حتى إذا تلكأ أبوه عن البدء بسرد أخباره، كان أحمد يحضّه مرّة، ويرجوه مرة أخرى، ويتوسل إليه... حتى يصل إلى غايته..

وأنهى أبو أحمد عشاءه في إحدى الليالي، ثم أخذ مكانه قرب الموقد، وهو يعرف ما ينتظره من المطالب، ويستعد لمواجهتها. وكأن لذة ما تناول من طعام على بساطته وقلة تنوّعه ـ كان أفضل بكثير مما كان عليه الناس أثناء الحرب، والذين مات الكثيرون منهم من الجوع، وتعذّر على الكثيرين منهم، الحصول على الخبز، كما تعذر عليهم الحصول على ما يؤتدم به. واسترسل أبو أحمد في

وصف تلك الحالة، فحكى لمن حوله ـ ولأحمد بصورة خاصّة ـ كيف أن الناس أكلوا الشعير وغيره من أصناف الحبوب التي كانت قديماً للحيوانات، ولا يأكلها الإنسان. ووصف كيف أن الناس كانوا يفتشون رَوْثَ الحيوانات ليحصلوا على حبة قمح أو شعير، كما كانوا يصطادون الفئران، والجرذان، والهررة أيضاً ليأكلوا لحومها. وروى لهم أيضاً كيف أن السرقات انتشرت في قريتهم فما بقي بيت واحد لم يهاجمه اللصوص ويسرقوا منه الماشية والقمح والشعير... وكل ما يفيدهم في تلك الأزمة الخانقة...

كان أبو أحمد يروي أخباره، والأولاد الصغار حواليه، كما الكبار أيضاً، يسمعون أخباره بأذن، ويرهفون السمع بالأذن الثانية إلى الخارج خوفاً من أن يكون اللصوص قد أحاطوا بالمنزل أو سَطَوا عليه وسرقوا ما كان عند أبي أحمد من الحيوانات والدجاج... ولكن لا، فكلب أبي أحمد ما زال بخير، وهو حَذِرٌ متيقظ باستمرار، لا تفوته حركة ولا صوت، وهو لو رأى أو سمع ما يريبه لكان نباحه قد ملأ الحي كلّه، وأيقظ الناس أجمعين...

ويسأل أحمد أباه: أما كانت الدولة تساعدكم بشيء في تلك الظروف العصيبة يا أبي؟ فيستشيط أبو أحمد غضباً على الدولة ويقول لولده: ما كانت مصائبنا في تلك الأيام إلا بسبب الدولة وقوانينها الجائرة، ولكثرة ما فرضته على الناس من الضرائب على الأفراد، والبيوت، والأشجار، والمواسم والغلال والويركو، وضريبة الأعشار، والضريبة على الدواب... هذا بالإضافة إلى الضرائب الطارئة بمناسبة وغير مناسبة، وبالإضافة أيضاً إلى السخرة والقيام

بأعمال لمصلحة الدولة دون أجور، وإرغام الناس على الخدمة العسكرية الإلزامية، ومصادرة المحاصيل الزراعية، بالإضافة إلى تسلّط المأمورين من موظفي الدولة، وقوات الأمن بصورة خاصة على الناس، حتى صار الأنفار منهم ـ الذين لم يحصلوا على رُتب عسكرية بعد ـ أشد وطأة على الناس من أي إنسان آخر، فكيف بأصحاب الرتب الذين صاروا يفتنُّون في أنواع التعذيب للناس، وفرض أنفسهم بالقوة عليهم، والاستبداد الذي لا حدود له. . .

وكما أن الفرح يجر الفرح، والنوم يجر النوم، هكذا فإن الأحزان تجرّ الأحزان، وكان الحاضرون الذين آذى سمعهم ما يرويه أبو أحمد، وثارت كرامتهم لكرامة الآباء والأجداد المهدورة، وثارت ثائرتهم على الظلم والطغيان، يتوجهون إلى أبي أحمد باستفساراتهم، ويجود أبو أحمد بالرد على سائليه عن معرفة أو عن غير معرفة، ويبالغ، ويغالي، وقد يخترع الأحداث، ويتخيلها، ويتصورها، ويسرد ما يخطر بباله، فتختلط الحقيقة بالأوهام، ويساعد ذلك كله في صنع الإطار اللازم للجو المأساوي الذي كان أبو أحمد يجد لذة في أن يرمي نفسه فيه، كما صار يجد لذة في أن يرمي الآخرين فيه. وليس من شاهد كمن سمع فيبقى له امتياز الشاهد الذي يجعله أهلاً «للثقة» عند من التفّوا حول موقده يطرحون أسئلتهم عليه.

وطرق الباب بعض الجيران الذين انضموا متأخرين للسهرة، فهبّ أبو أحمد لاستقبالهم، وأقعدهم إلى جانبه، بعد أن طلب من الأولاد أن يخلوا أماكنهم للضيوف ففعلوا إلا أحمد الذي أصرّ على البقاء في مكانه حيث كان يجلس، فهو ما ارتوى بعد من أخبار

الحرب، ولعل أسئلة كثيرة تجمعت في ذهنه في تلك الهنيهة... وعندما استقر المجلس بالناس، وهدأت مراسم استقبال الضيوف، أراد أحمد أن يستمر أبوه في عرض شريط أخبار الزمن الماضي فسأله: وهل كنت تجوع في تلك الأيام يا أبي؟ وماذا كنت تأكل؟

واعتذر أبو أحمد من ضيوفه، ووضعهم في أجواء تلك الجلسة التي كان هو نجمها الأول، ولخصّ لهم ما جاء في حديثه قبل حضورهم إلى منزله. وكأنما وجدها فرصة مناسبة ليخبرهم أيضاً ـ كما يخبر أولاده ـ بما عنده من تفاصيل الحرب، وليظهر نجوميته أمامهم ولينتزع منهم اعترافاً ليس بأنه المرجع الوحيد لأخبار الماضين ومعاناتهم أثناء الحرب العالمية الأولى، وإنما ليحصل على شهادة واعتراف بأنه أحد الأوعية التي امتلأت بأخبار لا تنضب. وعند أبي أحمد أن مثل هذه الأوعية لا يأسن ما فيها، ولا يعتق، وإنما هو «ذخيرة» وتاريخ يجب أن يحفظه كل إنسان ولا ينساه أبداً، ويستنير به ليحدّ طريق المستقبل، ويعرف العدو من الصديق، و... ينتقم، إذا كان هناك مجال للانتقام، ممن امتهنوا كرامة الآباء والأجداد، وأقعدونا مثل هذا المقعد المهين.

ويروح أبو أحمد يروي من جديد أخبار الحرب ومآسي الأيام الماضية، فيقول: «... كانت عمّة أبي امرأة تقية صالحة، وكانت منقطعة للعبادة في منزلها المتواضع، بعد أن مات زوجها، وتركها وحدها فريسة الهموم والأحزان والمرض، ولم يكن الله تعالى قد منَّ عليها بالذريّة الصالحة التي تعين الإنسان في شيخوخته، وتحفظ كرامته، وترعاه بعد أن يصير في «أرذل العمر». وكان أبي يعطف

عليها ويبرّها، ويتفقدها حيناً بعد حين، ويزورها في دارها، وهي بعيدة عنا مسافة طويلة لا يستسهلها الشيوخ، ويتعب منها الشباب. . . ولا أدري من أين وصلها ذلك المرض الخبيث الذي راح يختطف الأرواح روحاً بعد روح، ويقتل الناس بدون تمييز بين صغير أو كبير، ولا بين من يؤسف عليه ومن لا يؤسف عليه، وبين من يستحق أن يموت وبين من حرام أن يموت. . . ويتوقف أبو أحمد عن الكلام، ويمسح وجهه بيده، ثم يمدّها إلى رأسه ويلتقط قلنسوة سوداء كانت عليه، زينتها بقع خفيفة من رماد الموقد الذي كان لا ينسى النفخ فيه بين الحين والحين، ثم يمسك شرابة تلك القلنسوة وكأنه يتفقدها ويطمئن إلى سلامتها، ثم يضعها على ركبته، ولا يلبث أن يعيدها إلى رأسه. وهو بعين الجالسين الذين راحوا يتابعونه في حركاته وسكناته، وهم بانتظار أن يتابع حديثه. وكأنما أدرك أبو أحمد ما يجول بخاطر هؤلاء، وانتبه إلى أن عليه أن يتابع الحديث، فيعتذر من القوم: لا تؤاخذونا يا جماعة! عمّ كُنّا نتحدث؟ وقبل أن يجيب أي واحد من الحاضرين يتذكر أبو أحمد إلى أين وصل، فيقول: مرضت عمتي بالكوليرا، هكذا يسمون ذلك المرض، فأصابها إسهال شديد، وأصابتها حمى شديدة. . . فما عادت قادرة على مغادرة منزلها، ولا على مغادرة فراشها أيضاً، وبقيت أياماً على تلك الحال، لا يزورها أحد، ولا يعرف أحد ما جرى لها، وكان الناس يجتنب بعضهم بعضاً، وقد امتنعوا عن الاختلاط والتزاور وانقطعت أخبار الكثيرين. . . حتى إذا انقضت أيام عديدة، تذكّر والدي أن له أختاً تعيش وحدها في البعيد البعيد، وهو يعرف أنها لا مؤونة عندها ولا قدرة لها حتى على خدمة نفسها فلا تنفعها المؤونة لو وجدت. . .

وحاولت أن أرافقه لزيارة عمتي، فرفض أن يصطحبني في تلك الزيارة، واعترضت، وبكيت... فلم يأبه لبكائي... وبعد أن عاد متأخراً إلى المنزل سألناه عن سبب تأخّره، وكان في حالة سيئة جداً، موسخ الثياب، منكوش الشعر، مغبّراً، تبدو عليه علامات الإرهاق والجوع والعطش، أجاب: وجدت بابها موصداً، ورائحة كريهة تنبعث من غرفتها، فخلعت الباب، ودخلت... وسددت منخريّ بيدي، وتقدّمت نحوها لألفها باللحاف الذي كانت تغطي به جسمها، وغطّيت وجهها... ثم أحضرت معولاً ورفشاً، وحفرت لها حفرة صغيرة في حديقة منزلها، ودفنتها فيها... وهأنذا قادم من هناك...

ويسأل أحمد أباه: ألم يساعدك أحد في دفنها؟ فيجيب أبو أحمد: وهل كان هناك أحد غيري؟!

ويتابع أبو أحمد روايته تلك: ووقفت أمي في وجه أبي تريد أن تمنعه من دخول المنزل، وتصرخ في وجهه، وتدفعه إلى الخارج، وتحذّره من أن يكون قد حمل ذلك المرض إلى منزله وأولاده أيضاً... ولا أدري ما الذي خطر ببال أمي في تلك اللحظات، ولعلها قد تصورت الكارثة تحل بدارها، وتصورت الجميع صرعى بذلك المرض، بمن فيهم هي وأبي وتصورت الأبواب مفتحة، والهواء يصفر في أرجاء ذلك البيت، وكل شيء صار يباباً، وخلا البيت من كل صوت ومن كل حركة، فصرخت في وجه أبي: اخرج من هنا، عد إلى دار أختك فقد قتلتني وقتلت أولادي وقتلت نفسك أيضاً، عد إلى حيث كنت، ومُت هناك...

وكأنما: أحس والدي ـ يقول أبو أحمد ـ بفداحة «المصيبة»

التي ما عاد يخامره شك بعدما شاهد من أمي وسمع منها بأنها واقعة لا محالة، فارتد إلى الوراء، ثم أدار ظهره وانصرف إلى حيث كان، ولعله بعمله هذا يتدارك الفاجعة فلا يصيب عائلته، ويفتدي زوجته وأولاده بنفسه، وهو إن حصل ذلك فسوف يكون سعيداً أن يضحّي بنفسه ليحيا غيره وتستمر الحياة بمن تكون قد قُدّرت لهم بعد هذه الكوارث التي أصابت الناس.

ويسكت أبو أحمد فيسيطر على المكان صمت رهيب... ويطأطىء الجميع رؤوسهم، وينقّل أبو أحمد طرفه بين الحاضرين فلا يكاد يقع بصره على واحد منهم ينظر إليه إلا أحمد الذي راح يسترق النظرات إلى أبيه، ودموع تترقرق في عينيه، ثم تنهمر بغزارة فلا يمسحها أحمد، ولا يهتم بها. ويغضّ بصره عندما نظر أبوه إليه، وأطرق يتابع بكاءه في صمت... ثم يرفع رأسه ويقطع الصمت، ويسأل أباه: وهل مات جدي بعدها يا أبي؟ وبسرعة وعفوية وعلى عجل يجيب أبو أحمد ابنه: لا يا بني فقد عاد إلينا بعد أيام سالماً معافى، وإن كان في حالة من الضعف والهزال بعثت في نفوس الجميع الخوف عليه. ويسأل أحمد أباه: وماذا كان يأكل جدي ويشرب في هذه الأيام الخوالي؟ فيجيب أبو أحمد: لا أدري، وإنما كل الذي أعرفه أنه كتبت له النجاة...

ويعاود الصمت فيسيطر على المكان حتى يقطعه أحد ضيوف أبي أحمد فيقول موجهاً كلامه إلى أبي أحمد: وتبقى حالة والدك أفضل من حالة غيره. ولا ينتظر هذا الرجل حتى يسأله أحد عن هذا الغير، وما الذي يقصده بكلامه، فيتابع الضيف حديثه: أما عمّي، فقد أصابه

مرض الجُدري، فأفرد في غرفة التبان من داره، وترك وحده يعاني من هذا المرض، وما كان أحد قادراً على أن يقترب منه. وكان أهله يقدمون له الطعام والشراب فيضعونه أمام التبّان ويهربون، ويتناوله عمي، ثم لا يتجرأ أحد على استرداد ما كان عنده من الأواني، حتى إذا طال به المرض، وتقرّح جسمه، وخيف على الآخرين أن ينتقل إليهم الوباء منه، اقترح بعضهم على أولاده أن ينقلوه إلى العرزال في كرم التين الذي لهم خارج القرية، وأقعدوه هناك على فراش من القش وأوراق النباتات، وزودوه ببعض الماء، وتركوه وعادوا إلى منزلهم... حتى إذا خطر ببالهم أن يتفقدوه بعد يومين وجدوه جثة هامدة تتناوب عليها الكلاب والغربان... حتى أحالته هيكلاً عظمياً... ويتابع الراوي: وهكذا جرى للكثيرين الذين كانوا يصابون بهذا المرض. إذ كثيراً ما كان أهلهم يودعونهم المغاور والكهوف ليحدّوا من انتقال العدوى إلى الآخرين. وكان هؤلاء يقضون في تلك المغاور والكهوف، وتلتهم أجسادهم حيوانات البرية وطيورها الجارحة، في معاناة تدمى لها القلوب...

- ٣ -

وكان أحمد يعود إلى السؤال في كل ليلة عن أحوال الماضين، عن أبيه وأمّه، وجدّه، وعائلته... ونسبه ودينه... وعن أخبار الماضين ويسمع روايات أبيه التي اختلط فيها الصحيح بالسقيم من الأخبار، والصادق الثابت منها بالمخترع الذي يستجيب للغرائز والانفعالات والرغائب... وكان ذلك الصبي لا يرتوي، ولا يبرد جوفه الحار المتوقد شيء لما يسمع، بل لعل الأخبار التي كان يسمعها كانت كالزيت الذي يصب على النار المشتعلة فلا يزيدها اشتعالاً فقط، بل يزيد اضطرامها، وكان حسيسها ينبعث في تنهدات أحمد وما يظهر على وجهه من انفعالات، وفي حركاته التي لا تهدأ، وفي لمعان عينيه الذي ينبئك وأنت تنظر إليه بأن هناك سراً بعيداً ما زال الصبيّ يجدّ لمعرفته، وأنه لن يهدأ له بال قبل اكتشافه.

وكان سؤال أحمد لأبيه في هذه المرة: وما كنتم تأكلون في تلك الأيام يا أبي؟ وبدا عليه أنه نسي بأن مثل هذا السؤال قد طرحه على أبيه في مرة سابقة، أو لعلّه كان يتعمد أن يطرحه عليه مرة ثانية لأن الجواب عنه في المرة الأولى لم يكن شافياً. ويجيء هذا السؤال بعد أن كان الأولاد مجتمعين إلى العشاء حول طاولة صغيرة مستديرة، وضع في وسطها إناء واسع فيه طعام مضى عليه يومان،

وما زال الأولاد يأكلون منه، وقد أكل كل منهم رغيفاً، وسارعوا إلى التسابق في التهام ما وضع أمامهم من الطعام إلا واحداً منهم لم يعجبه ذلك، واعترض عليه، وطلب من أمه أن تحضّر لهم شيئاً آخر للعشاء، فما استجابت الأم لطلبه، ولم يكن أبوه أكثر إشفاقاً عليه من أمّه عندما رفع الأمر إليه يشكو أمه، وسمع أحمد أباه يقول للأولاد: اشكروا ربكم على هذه النعمة التي أنعم بها عليكم، وأنتم اليوم أفضل منا حالاً بدرجات، فما كان أحدنا في أيام خلت ليحلم بالطعام والشراب، وكثير من الناس كانوا يموتون جوعاً... ويسكت الأولاد، ويقنعون بما سمعوا من أبيهم، وتبقى الكلمات التي سمعها أحمد من أبيه ترنّ في أذنه، ثم عاد ليطرح عليه السؤال في السهرة: وما كنتم تأكلون في تلك الأيام يا أبي؟

ويسترسل الأب في الحديث عمّا كان عليه الناس من الفقر المدقع، وما كانوا يعانونه من الجوع، وكيف أن «المواسم» ما كانت لتسدّ الديون المترتبة عليهم للتجّار، ولا لتفي بالضرائب التي كان يفرضها عليهم الحاكمون وأعوانهم، وملتزمو الضرائب الذين يجمعونها بالقهر والظلم، والمصادرة... ويعدد أنواع الضرائب، وأنواع المظالم التي كان يعاني منها الناس.

وعندما كان أحمد يسمع هذه الأقاويل، كان يفهم بعضها، ولا يفهم البعض الآخر، وإنما كان يدرك في قرارة نفسه بأن ظلماً كبيراً كان يقع على أهله، ويدرك أيضاً أن الحاكم كان يمارس على هؤلاء الناس كثيراً من الظلم والاضطهاد، ولا يرعى فيهم فقراً، ولا مذلة

ولا جوعاً ولا عطشا. . . فكان ينفعل أشد الانفعال، ويتصور كأن هذا الظلم قد نزل عليه، فيسأل والده سؤال اللائم المتعجّب: ولماذا كنتم تدفعون هذه الضرائب؟ لو كنت أنا معكم في ذلك الزمن ما دفعتها. . . ويضحك الأب مما يسمع من أقوال ابنه ضحكة العارف بالخفايا، والمستخف بأقوال محدّثه لأن الحديث ينمُّ عن جهل وقلة دراية بمجريات الأحداث في ذلك الزمن. وما كان ذلك الضحك ليُخجل أحمد أو يسكته عن الحديث وإبداء الرأي، بل كان يتابع الحوار ويدفعه إلى نقاش حاد يرفض معه كل أنواع الظلم، وكل أساليب المعاملة التي كان يلقاها أبوه وأجداده من الحكّام في ذلك الوقت. أما الأب فما كان يضيق ذرعاً بولده، باعتراضاته، وحماسته واندفاعه في النقاش، بل لعله كان مسروراً بذلك أشد السرور، لما كان يرى من اندفاع ولده الذي يعوّضه الخوف الذي كان يشعر به في الزمن القديم، ويتمنى لو كان في جرأة ابنه ليقف في وجه الظالمين، وليتمرّد على المستبدين، ولينتقم من المعتدين. وكان ذلك يدفعه إلى استذكار ما كان يجري عليهم في تلك الأيام من أنواع الظلم، فيسرده لأولاده، ولعلّه كان يفعل ليسمع ردّ فعل أحمد عليه، ويرى في الرد صورة عما كان يجب أن يفعل هو شخصياً آنذاك، وليكون الردّ ـ ردّ أحمد ـ تنفيساً عن الكرب الذي كان يصيبه، ولو كان هذا الرد يأتي متأخراً في غير زمانه وفي غير مكانه. . .

وكثيراً ما كان يتطرق البحث في تلك الليالي إلى مواضيع شتى

بحيث يرسم صورة واضحة تمام الوضوح في ذهن أحمد عن أحوال ذلك الزمن القديم، وإن كانت هذه الصورة غير واضحة في أذهان الآخرين، وحتى في ذهن الراوية أبيه، والذي كان لا يتنبه إلى المغازي التي يقصد إليها ابنه من أسئلته وما كان يترتب على الأجوبة عن تلك الأسئلة من المشاعر والأحاسيس والمواقف، وما كان يتفجر في قلب أحمد من الأحقاد على حكام ذلك العصر، وكيف كان يرتّبهم، وكيف كان يربط بينهم وبين حكام زمنه الذين يجد فيهم صورة من أولئك الحكام القدامى. وكيف أن أحمد كان يرى كثيراً مما يجري من الأحداث حوله شبيهاً بما كان يدور في الأزمنة الماضية، وإن كانت الصور غير متطابقة تماماً، ولكنه يعتبر هذه من تلك، وأن الداعي إلى هذه وتلك واحد، وأن روح الحكام في التعامل مع الناس واحدة، وأن صورة الماضي هي على نحو ما تراه اليوم من فصول مسرحية الزمن التي يمثلها الناس في هذه الأيام.

وكثيراً ما كان والد أحمد يخوض في الحديث، ويوغل في شعاب الماضي البعيد، ولو أنه ما كان يعرف الكثير عن هذه الشعاب، وعما كان يجري فيها، وكل ما عنده من علم نتف مما كان يردده الناس في جلساتهم الخاصة، أو في مجالسهم العامة، يتحدثون فيها عمّا أصاب أجدادهم من الغبن في زمن الحكومات السابقة المتعاقبة، وأزمنة الظلم التي جثمت على صدورهم قروناً من الزمن، والناس لا حول لهم ولا طول، ولا ذنب ارتكبوه ليعاقبوا

بمثل ما كان يعاقبهم به الحكام في سالف الأزمنة! إلا أنهم يخالفون الحاكم في العقيدة، ولعل الاختلاف في العقيدة لم يكن الأساس لهذه المعاملة والمُسوّغ لها، وإنما كان لأن أهل هذه البلاد قد اعتادوا على نمط من الحرية في التفكير، وعلى نوع من المسلك الذي لا يحابي الظالمين، ويواجههم، ويقارعهم ولا يسكت على الضيم، وينتقد، ويقول ما في نفسه... وهم قد عُلِّموا من قبل، ومن القديم القديم أن «خير الجهاد في سبيل الله كلمة حق تقال في حضرة حاكم ظالم». وما يهم الحكام أن يسكت الناس عن تصرفاتهم وأعمالهم، وأن يكونوا كمن لم يرَ شيئاً، ولم يسمع شيئاً، وأن يؤمر فيطيع، ولا يتكلم إلا إذا سُئل، وإذا تكلم ألا يقول إلا ما يرضي الحاكم ولو كان ظالماً... وراحوا يروّجون لفكرة أن حكام ذلك الزمن هم «أولو الأمر» الذين أمر الله تعالى بطاعتهم، ومن لا يطيعهم يعصي الله تعالى، وهو بذلك يستحق العذاب...

كان أبو أحمد يعرف هذا الواقع، ليس على صورته الحقيقية، وإنما بصورة مشتتة، غير واضحة المعالم.. فكان يردد على مسمع أولاده ما بقي في ذهنه وما يسعفه به خياله الذي يرتع في الأحزان، ويتغذى بمشاهد الظلم، فتنمو صورة الظلم فيه، ولعله كان «يأنس» بتصور ضحايا معلقة على أعواد المشانق، أو تقطع رؤوسها بالسيوف، أو تصلب في الساحات العامة، أو تجرجر في الأزقة، وتنهشها الكلاب والهررة والجرذان...

وكان أجود ما يجود به ذلك الرجل عندما يصل إلى الحديث

عن أهله الذين عمّروا مناطق من لبنان قديماً، وما أطاعوا الحاكم وما خضعوا له أثناء حكم السلاجقة وكيف أن هؤلاء قد صبّوا جام غضبهم على قومه وأهله، فاستصدروا في حقهم الفتاوى لأنهم خارجون على القانون، مخالفون للشريعة... فأهدروا دماءهم، واستحيوا نساءهم، وصادروا ممتلكاتهم، وأجلوهم عن أرضهم... وشتّتوهم في البلاد، وقتلوا علماءهم، وافتنوا في التنكيل بهم... ويستحضر صوراً بذاتها من أعمال (قراقوش) و(أحمد باشا الجزار) وأمثالهما... ويصل الماضي بالحاضر، ويخلط بين الأحداث. أما الدارس للأمور فكان يفهم ما يريد أبو أحمد من رواياته، ويعرف ما الذي يرمي إليه، وأما من كان طريّ العود، قليل التجربة، لا يعلم حقيقة ما جرى، فكان كأنّما يُرمى في أتون من النار، أو كأنما أشعلت في داخله مثل ذلك الأتون فراح داخله يغلي بما عبّأه به أبو أحمد من الزيت الذي يثير دخاناً كثيفاً، تعمى معه الأبصار كما تعمى منه الأفئدة... وكان البعض يجدون في هذا «العمى» ما يلذّهم لأنه ينكأ قُرحاً قديماً، طال تقرّحه ولم يجد من يعمل فيه مبضعه ليستخرج منه ذلك الصديد الذي يؤذي ويؤلم ويؤرّق... وقد يقتل أيضاً.

حتى إذا شعر أبو أحمد أنه تمّ له ما يريد، وأنه استطاع أن يبلغ من نفوس السامعين ما يشتهي، وأحسّ أن الآخرين قد دخلوا معه في الأتون الذي كان يشوي نفسه فيه، وأنهم قد امتلأت نفوسهم حقداً وألماً وغضباً وثورة... كان ينهي حديثه بحركة لا تخلو من

شيء من التمثيل، عندما يضع رأسه بين يديه، ويسند رأسه ويديه إلى ركبتيه، ويمضي وقت وهو على هذا الشكل، وكثيراً ما كان الأمر ينتهي به بالتباكي على الماضين، وعلى حاله وشعبه وأهله والضحايا والشهداء... وكثيراً ما كان يبكي فعلاً. ثم يرفع رأسه ليُري الجالسين الدمع يترقرق في عينيه، ثم يفتنّ في مسحه عن وجهه بيديه... ليبكي معه الحاضرون في السرّ والعلن. وينتهي بهم الأمر إلى رفض السلطان وشتم الأعداء وتوعُّدهم بالويل والثبور، والتعهد برفع الظلم عن شعب أعزل لا يملك شيئاً من الحماية، متروك للقدر يفعل به ما يشاء، ويستبد به حاكموه، يقهرونه ويشتتونه في البلاد... ويزيد إيمانهم بأنه لا بدَّ من أن يأتي يوم ينتصر فيه المظلوم على ظالمه. وما عليهم غير الانتظار حتى يحين الوقت، ويأتي ذلك اليوم الموعود.

لم يكن أحمد الوحيد الذي يحمل بين ضلوعه صورة لذلك الماضي البعيد القريب الذي كان يؤلمه ويؤثر فيه، ولكن كل واحد من أبناء جيله ومن أبناء مجتمعه ـ كباراً وصغاراً ـ كان يعيش مثل هذه الهواجس، وتأسره مشاهد الظلم وأخباره وقضاياه التي كانت ترقى في نفوس هؤلاء إلى البعيد البعيد، والذي لا يختلف عن الحاضر والقريب اختلافاً كبيراً. وإذا كانت العصور السالفة قد شهدت تخلفاً في العقليات والثقافات، كما شهدت غياباً للمفاهيم الإنسانية والقيم الأخلاقية بفعل وقوع السلطة في يد جماعات لا تقيم وزناً لكل هذه المفاهيم، فإن للسياسة مفاهيمها وأجواءها التي تميل بالحاكم إلى التمسك بالسلطة والدفاع عنها والاستماتة في سبيلها، والقهر والظلم والطغيان في سبيل الاستمرار والبقاء... مما تستمر عليه الخليقة في كل العصور. إلا أن أحمد وأهله ومحيطه كان يطغى عليهم ويملأ نفوسهم شعور بالظلم والاضطهاد، طال الأجداد، وعانى منه الآباء، وما زال مستمراً في الأبناء، ولا أحد يعلم متى تكون نهايته، أو أنه قليلاً ما كان يوجد أناس يؤملون بالانتهاء منه، ووضع نهاية للممارسة الشاذة للحاكمين وأصحاب السلطان. وماذا يفعل الإنسان المغلوب على أمره في مثل هذه

الظروف؟ وماذا يمكن له أن يفعل غير أن يؤمّل بزوال الظلم وإشراق شمس العدالة، أو أنه قد يرتقي درجة في تفكيره فيها جرأة على التفكير بالانتفاض على الواقع وهدمه، والحصول على الحقوق بالقوة. وإثبات الإنسان لوجوده برغم أنف المعترضين... وبخاصة عندما يستشعر الإنسان من نفسه القوة والقدرة على فعل شيء، فيكثر عدده، ويزيد ماله، وتزداد قوته، وفعاليته في المجتمع، ويستطيع أن يخترق الحجب، ويقفز فوق الحواجز المصطنعة، ويحلق في فضاء الحرية، ولا تعود الجدر ولا الأسلاك الشائكة ولا الخنادق أو الوديان والجبال... قادرة على أن تحبسه في قفص الذل والمهانة، وتحد من قدرته وطاقاته.

وينشأ أحمد على ما اكتسبه من بذور العلم بالأقدمين وحياتهم، وعلى بذور الثورة التي كانت ما زالت في نفوسهم شعوراً مبهماً غير واضح، وكانت تقتصر في ذلك الوقت على شعور بالقلق وعدم الرضى عن الواقع، ورفض للظلم والطغيان يؤرق أحمد ويقضّ مضجعه دون أن يكون قادراً على أن يفعل شيئاً، وإن كانت هذه الحالة عنده تتمثل في فعل عصيان ورفض وانتقام ورد الظلم بالظلم، والضربة بالضربة، والنَهرَ بالنهرِ، والإهانة بالإهانة... والتمرّد على الظالم وعدم إقراره على ظلمه والسكوت عنه... ويقوى أحمد ويشتد ساعده فيكون رياضياً من الدرجة الأولى، ويتعلّم السباحة والمصارعة ورفع الأثقال... ويختبر قوته في كل وقت ويوظفها في خدمة المحتاجين، ويميل إلى مساعدة الناس بكل

ما يملك من قدرة، يقدمها بكل سرور وانشراح وفرح... ويغضب إذا فاته عمل خير أو مساهمة في مهمة، وبخاصة ما كان منها يتطلّب جهداً خاصاً وقوة غير عادية.

لم تكن المدرسة وحدها ميدان ثقافة أحمد واكتسابه لمفاهيم الحياة، وتكوين قناعاته الخاصة، بل كان للمحيط و«المدارس الاجتماعية» المتأصلة فيه مكانة في تزويده بما كان يحتاج إليه من المفاهيم.

كان أحمد يتردد على شيخ القرية الذي اتخذ من مسجد البلدة مقاماً له، ينشر منه أفكاره ومبادئه، ودعوته... وكان هذا متحمساً ـ كما كان أحمد ـ لقومه وأهله، وكان يرى ما كان يراه أحمد أيضاً من الظلم الذي وقع على أهله، وهو لا يريد للأجيال الجديدة أن تقع فريسة الماضي وتستمر فيه، بل كان يريد للقوم أن يستقلوا في تفكيرهم، ومبادئهم، وأفكارهم... حتى يستقلوا في حياتهم وأعمالهم وتجارتهم... ويصيروا أسياداً ويتخلصوا من نفسية الخدم والعبيد والشعور بالإحباط وتفوق الآخرين عليهم، كما كان القدامى يفكرون، حتى ولو لم يكن في يدهم سلطان، وقد تأثر الجيل الجديد ببعض الأفكار التي كانت تحملها غمائم الرحمة التي تمرّ في سمائهم، أو تحط في أرضهم فتنعش الأرض والإنسان والحيوان، وينبت الزرع ويمتلىء الضرع، ويرضع حليبها كل مخلوق...

وكان ذلك الشيخ لا يملّ ولا يكلّ في الدعوة إلى مبادئه وأفكاره، في الليل والنهار وفي كل مناسبة، ومن على كل منبر...

حتى إذا كانت المواسم، وكان هذا الشيخ قد أعدّ لكل موسم عدّته، كان ذلك الشيخ يجود بما عنده، ويجود في العرض، ويستطيع أن يستقطب الناس من كل مكان فيقصدونه للاستماع إلى حديثه. وأهم هذه المواسم كان موسم عاشوراء، هذا الموسم الذي اختلف ـ مع هذا الشيخ وأمثاله ـ عن المواسم السابقة يوم كان الناس لا يتجرأون على الاجتماع، وإذا هم اجتمعوا كانوا «يتقون» أعداءهم، فلا يقولون ما يقولون إلا همساً وإذا أجاد شيوخهم في تصوير الظلم الذي لحق بالأمة في الأزمنة القديمة وعبر التاريخ، وعبر العصور مع الأمويين والعباسيين والسلاجقة والأتراك... وكل الظالمين... كان الخوف من الحاكم يكتم الأنفاس، وتحتقن الصدور وتضجّ بالمشاعر، ويثورون على الظلم... ولكن هذه الثورات كانت إما أن تخنق صاحبها، أو أن تتحول جداول وأنهاراً من الدموع تستمر الموسم كلّه، حتى تتحوّل في آخر الموسم جداول من الدم يسيل من الرؤوس التي يهوي عليها أصحابها بالسيوف ولا يحاذرون شيئاً، ومن الصدور والظهور التي يلطمها أصحابها بسلاسل الحديد، وقد غابت من النفوس مفاهيم الشفقة والرحمة، متأسّين في ذلك بالحسين، وما أصاب آل البيت على يد الظالمين. وهل أعزّ على نفوس هؤلاء من الحسين، وأعظم مكانة في قلوبهم منه ومن آله؟ وهل فوق ما أصابه وأصاب أصحابه وأهل بيته من مصاب؟ ثم ألم يكن وعد قديم قديم من أنَّ من ينصر الحسين ولو بالكلمة والموقف له أجر ذلك، وهو أجر عظيم عند

الله؟ وأن الذي تكون غايته رضا الله تعالى بالانتصار لهؤلاء، ولو بالموقف، وإن كان بعد فوات الأوان، له أجرٌ عظيم أيضاً؟ فكيف إذا كان الإعراب عن الموقف قد صار عند هؤلاء عقيدة، أو هو العقيدة الأساس في شريعته، فولاية أهل البيت هي الأصل، وهي في الصدارة، ومقدمة على سواها، وهو الشريعة كلها، ومن آمن بها كان على حق، ومن لم يؤمن بها فأمره إلى الله.

كان أحمد يحضر مواسم عاشوراء، وفي هذه المواسم كان شيخه، وأشياخ آخرون يستعرضون ما جرى للناس منذ القديم في سلسلة من الظلم التي استمرت، وما زال الزمن يصوغ آخر حلقاتها التي يقيد بها الناس... وكان هؤلاء المشايخ لا يتركون كبيرة ولا صغيرة إلا يذكرونها، حتى أنهم كانوا أحياناً يستغرقون في التفاصيل الصغيرة الصغيرة، كما كانوا يفتنون أحياناً كثيرة في السرد والوصف، واستحضار المشاعر المثيرة، وتعمد إبكاء الناس واستثارة مشاعرهم، وتحضيرهم جنوداً للقضية التي بدأت بظلم الحسين وأصحابه، وقبل ذلك أيضاً، وسوف تستمر إلى موعد مضروب، وسيأتي لا محالة...

وكان أحمد يسأل عن هذا الموعد المضروب، ولا يلبث أن يجد الجواب عند كل الناس، ذلك أن هذا الموعد لم يعد سراً مخبوءاً، بل صار عقيدة يعرفها الكبير والصغير ويعيش عليها الصغار أكثر من الكبار، فهم جميعاً يؤمنون بأن الانتقام قادم، وأن الحق لا بد أن ينتصر، ولا بد من عودة الحق إلى أصحابه، كما لا بد لنير

الظلم أن ينكسر ويعود الناس أحرار العقول، أحرار النفوس، عبيداً لله وحده، أحراراً في تصرفاتهم، ولا يملكهم ملك ولا حاكم ولا أمير... إلا إذا كان عبداً لله تقياً، يؤمن بما أمر به الله، ويصدع بالحق، والناس عنده سواء ولا فضل لواحد على الآخر إلا بمقدار تقواه وورعه وانتصاره للحق...

كان أحمد يؤمن بذلك كله إيماناً نشأ عليه كما نشأ عليه الناس جميعاً في محيطه، وزاد قناعةً به وإيماناً ويقيناً بعد أن مارس طقوسه ـ وسمع من المواعظ والإرشادات ما رسخ هذه المفاهيم في نفسه، وعاش على أمل أن يأتي الوقت الذي يتحقق فيه ما آمن به واعتنقه من المبادىء والآراء والعقيدة... وصار شوقه لحصول ما يريد وما يرغب فيه ويعيش عليه يؤرقه فلا ينام، ويستعجله، ويسائل: متى سيكون ذلك؟ ويسأل أحمد نفسه ويسأل الآخرين: متى سيكون ذلك؟ وفي كل مرة كان يأتيه الجواب: عليك بالانتظار، وكل آتٍ قريب!.. وهذا لا يكون إلا بأمر الله.

وينصرف أحمد إلى البحث والتنقيب، والدرس واستقصاء الأخبار حول موضوعات مختلفة كانت تشغل باله، ويغوص بين الكتب يستفتيها ويستشهدها لعله يجد ما يوضح له بعض المسائل العالقة في ذهنه، ويفسر بعض القضايا التي لا يجد لها تفسيراً، ولا يجد عند أحد جواباً عنها غير أجوبة لا تشفي الغليل، وتزيد الظمأ إلى المعرفة، كما تزيد الرغبة في التعمق لاكتناه الحقيقة والوصول إليها. ويبقى يتردد على شيخه، ويجالسه مع رفاق آخرين، وكثيرا ما كان يحب أن يختلي بشيخه ليسأله أسئلة لا يجد موجباً لطرحها أمام الناس، لأنه كان يشعر في قرارة نفسه أن مثل هذه الأسئلة لن يجيب عنها أستاذه بصراحة، واعتقد أنه سوف يسمع منه عندما يسأله على انفراد ما لا يمكن أن يسمعه في مجلس عام، فكان يأتي شيخه في أوقات كان يظن أن زوار الشيخ يكونون قلّة، أو أنهم ينصرفون من عنده ولا يبقى أحد منهم. وبرغم أن ذاك الشيخ كان يكره مثل هذه الطريقة، وكان يفضل أن يوجه كلاماً واحداً للناس جميعاً، وكان يرى أن لا مجال في العلم لإغماض شيء، وعدم البوح ببعض القضايا، لأن لا حياء في العلم، ولأن العلم مشاع بين الناس جميعاً، يقوله على حقيقته، وكما ورد في الأخبار، وليفهم

منه الناس ما يشاؤون وما يقدرون على فهمه، ولا همّ عنده أن يفهم الناس الخبر فهماً صحيحاً أو مجتزءاً، وأن من يبخل بالعلم على الناس مأثوم، ومن يكتم علماً عنده عن الناس شيطان أخرس...

كما كان الشيخ يرفض استقبال الناس في داره، بل يفضل أن يلقاهم في المسجد حيث كان يكثر من المكوث، فلا يعود إلى بيته إلا بعد انتهاء أعماله بالكامل، وفي أوقات متأخرة... إلاّ أنه كان يرى في أحمد شخصاً مختلفاً عن بقية الناس، ويرى «أنه سيكون لهذا الفتى شأن كبير» فكانت له معاملة خاصة، وكان يقبل منه ما لا يقبله من غيره.

وبمساعدة شيخه استطاع أحمد أن يستقصي موضوعات كثيرة، وأن يحصل على معلومات قلما يعرفها الناس، وتوقف عند أخبار الخلافة ـ خلافة الرسول ﷺ ـ والأئمة من بعده، وقرأ مقولة الظهور بعد غيبة، وكان يعرف عنها أشياء كثيرة صارت من ثقافة شعبه وبيئته في أمر الإمام والغيبة وما يسبق الظهور من الأحداث. لأن ظهور الإمام صار الغاية والمرتجى عند القوم. وصار الحدث الأخطر في حياة الأمة الذي ينتظره الجميع، ولا يكذبه أحد، وإن كانوا يختلفون في توقيته، وظروفه، ومواصفات المهديّ...

وقرأ أحمد في الكتب التي راجعها: ...إذا صارت الدنيا هرجاً ومرجاً، وتظاهرت الفتن، وتقطعت السبل، وأغار بعضهم على بعض، فلا كبير يرحم صغيراً، ولا صغير يوقّر كبيراً، فيبعث الله عز وجل عند ذلك من يفتح حصون الضلالة، وقلوباً غُلفاً...

ويملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً... وقرأ أيضاً: أبشروا بالمهدي، فإنه يأتي في آخر الزمان على شدة وزلزال، يسع الله له الأرض عدلاً وقسطاً.

يرضى به كل مؤمن، يحكم بالعدل ويأمر به... يجمع الله له من أقصى البلاد وعدد أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً.

وعلامة خروج المهدي إذا خُسِف بجيش في البيداء...

ويقرأ أحمد أيضاً على لسان رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه ولدي المهديّ، فينزل روح الله عيسى ابن مريم فيصلّي خلفه، وتشرق الأرض بنور ربّها، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب».

ويقرأ أحمد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

و: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

و: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

ويقرأ أحمد ويقرأ، ويستقصي الأخبار وكتب التفسير، ويجادل ويناقش، ويسعى لأن يستزيد من ذلك كله علماً ومعرفة بآتي الأمور، ويحاول أن يتوسع في الإشارات تفسيراً وتحليلاً، كما

يحاول أن يوقّت الأمور في أوقاتها، وكانت تدفعه إلى ذلك رغبات كثيرة، وشوق عارم إلى أن يرى دولة الحق تظهر في زمانه واليوم قبل الغد، ويخشى أن يحدث ما حدث لمن كانوا يعتقدون مثل ما يعتقد الآن، ثم ولى هؤلاء، وبقي الوعد، وبقي الأمل شوقاً يحرق قلوب المؤمنين الذين يتحرقون لأن يكون الخلاص على أيديهم. ويبقى أحمد يلحّ بالسؤال على شيخه: متى سيكون ذلك؟ أفي زمننا، وندركه نحن يا شيخ؟ أفنكون مع الذين يحبهم الله ويحبون الله وينتصر الله بهم لدينه؟... ولا يسمع أحمد من شيخه إلا جواباً واحداً: عليك بالانتظار يا بنيّ، وعسى أن يكون ذلك قريباً.

ويروح أحمد يتأمل في كل ما حوله، ويرى ما عليه الناس، وما صارت إليه أحوالهم، وما ظهرت فيهم من النُّذُر، وما يصحّ فيهم من الأحاديث والأقوال والآيات، ويقرأ في وصف ذلك:

ـ يأتي على الناس زمان بطونهم آلهتهم، ونساؤهم قبلتهم، ودنانيرهم دينهم، وشرفهم متعهم، كل درهم عندهم صنم.

ـ ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الرِّبا، فإن لم يأكله أصابه غباره...

ـ يذهب الصالحون أسلافاً: الأول فالأول، حتى لا يبقى إلا حثالة كحثالة التمر والشعير، لا يبالي الله بهم.

ـ تخبث فيه سرائرهم، وتحسن علانيتهم طمعاً في الدنيا، لا يريدون ما عند الله عزّ وجلّ، يكون أمرهم رياءً لا يخالطه خوف،

يعمّهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجاب لهم.

ـ تكون الوجوه وجوه الآدميين، والقلوب قلوب الشياطين.

ـ يمسي الرجل مؤمناً، ويصبح كافراً. يبيع أقوام دينهم بعرض الدنيا.

ـ إن القوم سيفتنون بأموالهم، ويمنّون بدينهم على ربهم، ويتمنّون رحمته ويأمنون سطوته، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة، والأهواء الساهية، فيستحلّون الخمر بالنبيذ، والسُّحت بالهديّة، والرّبا بالبيع.

ـ إذا تواخى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابّوا على الكذب وتباغضوا على الصدق...

ـ يصير الشر ظاهراً لا ينهى عنه، ويعذر أصحابه، ويكرّم الأشرار، وينبذ الأخيار.

ـ يكون ذلك إذا عظّمتم أغنياءكم، وأهنتم فقراءكم، ورأيت الخلق في المجالس لا يتابعون إلا الأغنياء.

ـ يتجاهر الناس بالمنكرات، ويظهر القمار، ومن أكل أموال اليتامى يحمد بصلاحه.

ـ ورأيت الولاة يقربون أهل الكفر، ويباعدون أهل الخير، ويرتشون في الحكم، حتى تصير الولاية قيالة لمن زاد، ويحتكر السلطان الطعام لنفسه.

ـ يظهر القائم إذا شاور الرجال النساء، وركب الذكور الذكور، والإناث الإناث، وتزيّن الرجل بزينة المرأة لزوجها، وزُفَّ الرجال للرجال كما تُزفّ المرأة لزوجها.

ـ ويعيَّر الرجل على صون النساء، وينفق الرجل من ماله في غير طاعة الله، فلا يُنهى ولا يؤخذ عنه.

ـ إذا شاركت النساء أزواجهن في التجارة حرصاً على الدنيا.

ـ إذا تزينت النساء بثياب الرجال، وسلب عنهن قناع الحياء.

ـ لا تقوم الساعة حتى تظهر ثياب تلبسها نساء كاسيات عاريات... وعندما تتخذ النساء مجالس وتكون الجموع الكثيرة، حتى أن المرأة لتتكلم فيها مثل الرجال ويكون جموعهن لهواً ولعباً، وفي غير مرضاة الله.

ـ إذا صدقت أمتي بالنجوم وكذبت بالقدر حين يتخذون الأمانة مغرماً، والعبادة تكبراً واستطالة على الناس...

ويقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام:

يقول سيدنا القائم وهو مسند ظهره إلى الكعبة:

يا معشر الخلائق، ألا، من أراد أن ينظر إلى آدم وشيث، فها أنا آدم وشيث.

ألا، ومن أراد أن ينظر إلى نوح وولده سام فها أنا ذا نوح وسام.

ألا، ومن أراد أن ينظر إلى إبراهيم وإسماعيل، فها أنا ذا إبراهيم وإسماعيل.

ألا، ومن أراد أن ينظر إلى عيسى وشمعون، فها أنا ذا عيسى وشمعون.

ألا، ومن أراد أن ينظر إلى محمد وأمير المؤمنين فها أنا ذا محمد وأمير المؤمنين.

ألا، ومن أراد أن ينظر إلى الحسن والحسين، فها أنا ذا الحسن والحسين.

ألا، ومن أراد أن ينظر إلى الأئمة من ولد الحسين فها أنا ذا الأئمة...

«يهبط المسيح عيسى ابن مريم عند القنطرة البيضاء على باب دمشق الشرقي في وقت السَّحر. تحمله غمامة واضعاً يديه على منكب ملكين، عليه ملاءتان مؤتزراً بإحداهما، مرتدياً الأخرى، يقطر من رأسه كالجمان. فيأتي اليهود فيقولون: نحن أصحابك، فيقول: كذبتم...

ويلتفت المهديّ وقد نزل عيسى ابن مريم كأنما يقطر من شعره الماء، فيقول المهديّ: تقدّم وصلِّ بالناس. فيقول عيسى ابن مريم: إنّما أقيمت الصلاة لك... فيصلّي عيسى خلفه، فإذا انتهت الصلاة قام عيسى إليه فبايعه.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام في وصف أصحاب المهديّ عليه السلام:

رجال لا ينامون الليل، لهم دويّ في صلاتهم كدويّ النحل، يبيتون قياماً على أطرافهم ويصبحون على خيولهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار.

هم أطوع من الأَمَةِ لسيّدها.

كالمصابيح، كأن قلوبهم القناديل، ومن خشية الله مشفقون، يدعون للشهادة ويتمنون أن يقتلوا في سبيل الله، شعارهم: **يا لثارات الحسين**.

إذا ساروا يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر... بهم ينصر الله إمام الحق.

كان أحمد منهوماً بالقراءة، يسعى وراء الكتاب أينما كان، حتى لم تبقَ في المدينة مكتبة عامة إلا قصدها، وقرأ فهارسها، واختار منها كتباً بعينها، وقرأها، وسجل ملاحظاته عليها، واقتبس منها ما أمكنه أن يقتبس، يسجله في سجلاته الخاصة من الدفاتر التي تحوي كل طريف عنده، وكل معلومة تختص بالموضوع الذي يحبه ويسعى إليه. كما كان يشتري من الكتب ما وسعه شراؤه، وبخاصة من تلك التي كان بعض تجار الكتب يعرضونها على الأرصفة في شارع المكتبات في بيروت، وبينها كتب كثيرة مهملة، لا يعرف أصحابها لها قيمة، فيتخلصون منها، ولا يعرف لها تجار الكتب قيمة فيعرضونها بأبخس الأثمان، ويقدر أحمد قيمتها عالياً لما تحويه من معلومات يسعى وراءها، فيسارع إلى شرائها، ويحتفظ بها، ويعيد تأهيلها ويصونها، ويقرأها، ويستمد منها علماً وحكمة، وأخباراً ومعارف لا يجدها في مكان آخر... حتى اجتمعت عنده مكتبة عامرة بالكتب من كل الأنواع، وفي كل الموضوعات، وإن كان الطابع الغالب على تلك الكتب التي تبحث في العلوم الغيبيّة، وبخاصة ما كان منها يخبر عن آخر الزمان، وما يجري فيه من الأحداث، فإذا اجتمعت له معارف في هذا الموضوع راح يحدث بها، وينشرها بين الناس، حتى عرف بذلك، وكأنما صار هذا

الموضوع من اختصاصه. فصار الناس لا يتورعون عن سؤاله عن كل جديد عنده. وما كان هو الآخر يتورع عن أن يمدهم بما عنده من المعلومات، ويفتن في عرضها وتفصيلها، وما أحد يدري كم كان أحمد أميناً في نقل المعلومات، وما إذا كان يخترع منها ما يناسب هواه، أو أنه يفصل الأخبار بما يوحي به إليه خياله، وما يلذّ له أن يحصل، ويمثل طموحاته، ويبلسم جراح نفسه، ويخفف من غلوائه.

وما كان أحمد ينقطع عن التردد على شيخه، وزيارته في كل يوم مساءً، في مسجده، ويؤدي الصلاة مؤتماً به. حتى إذا انتهت الصلاة، وانصرف الناس إلى بيوتهم، كان يقترب من شيخه، ويحدّثه، ويسأله مسائل كثيرة، وكان الشيخ يجيب وهو في غاية السرور، إذ وجد فيه أحد أنجب تلاميذه ممن كان يتوقع لهم مستقبلاً زاهراً، وكان ينتظر له دوراً مهماً في الحياة، وكثيراً ما أعلن الشيخ أمنياته لأحمد، وعلى مسمع من الناس، أحياناً كثيرة، في أن يكون هذا الشاب خليفته الذي يتابع رسالته على النحو الذي يرغب فيه الشيخ، ويصفه بالنهج المستقيم الذي ارفضّ عنه الكثيرون، ولم يثبت عليه إلا القلة، وعلى رأسهم وأعلمهم أحمد.

كان أحمد يطلع شيخه على كل ما عرض له من أحداث في اليوم، وما سئل عنه، وما أجاب به، فيصحح الشيخ ما يجب تصحيحه من المعلومات ويهنىء ويشجع على بعض التفسيرات وعلى بعض المواقف، ويشد من أزر تلميذه، ويفصح له عما لا يفصح به لغيره من طلاب العلم أو الذين التفوا حول الشيخ

ليستفيدوا من علمه وبركته، ودعائه، ويطلعوا على شؤون دينهم، ويأخذوا عنه أحكام شريعتهم.

وكان الناس يعرفون هذا الشيخ بما عنده من التزمّت، والتشدد في أمور الدين، والتطرف أحياناً كثيرة في أحكامه على بني قومه، وعلى نفسه وأتباعه وتلاميذه. وكثيراً ما كان يتخذ المواقف الصارمة في حق الجميع، ولا يتساهل في أي شيء من أمور الدنيا والآخرة، مما لا يطيقه الناس، ولا سمعوه من غيره، ولا عاملهم بمثله أحد من المتدينين ورجال الدين. وبرغم هذا كله كان الناس يحبون هذا الشيخ لتقواه، وكانوا إذا ضاعت الحقائق، واختلطت الأمور على الناس، وجدوها عنده واضحة تمام الوضوح، ثابتة أشد الثبات، مصونة أفضل الصيانة... فينصاع إليها من ينصاع، ويهرب منها من يهرب... وما هَمَّ؟! ألست على صواب؟! أليس هذا هو الحق... يقول الشيخ الذي كان يزداد ثباتاً على مواقفه كلما ازداد الناس انزلاقاً وانحرافاً عن جادة الصواب.

ويتحدث الناس عن «عجائب» هذا الشيخ وكراماته التي يشاهدونها بأم العين، وعن الزهد الذي يعيش فيه في داره وأثاثه، ومأكله، ومشربه، وثيابه التي يلبسها، وحذائه العتيق، وعصاه التي تشهد له بالزهد، وضمور جسمه وانحناء ظهره، وثقته بالله، وابتعاد الشك عنه، ورسوخ العقيدة عنده...

وصار هذا الشيخ أستاذ أحمد الذي لا ينازعه في موقعه منازع. وكان أحمد يكبر ويكبر، وكان الشيخ ينفتح على تلميذه وكلما كبر التلميذ كان الشيخ يسرّ له بما لا يسرّ به لأحد من الناس، ويحمّله من

المسؤوليات الجسام ما لا يحمّله لسواه، والشاب يعي في قلبه ما لا يبوح به، ويكتنز الأسرار التي يطلعه عليها شيخه... فينصرف من عند أستاذه ممتلئاً قلبه غبطة وسروراً، كما يمتلىء فكره علماً ومعرفة ومدارك ومفاهيم، وكما تمتلىء نفسه أسراراً كان أحمد يرى فيها الفرج لنفسه من الحيرة التي كانت تتأكّلها، كما يرى فيها الفرج للناس والمجتمع من معاناتهم الدائمة اليومية والتي مضت عليها أجيال وأجيال، حتى كبّل الحزن نفوس الناس، وأحاطت المذلّة بهم من كل جانب، وصاروا يخشون الحاكم مهما كان، ويرهبون السلطة ولو تمثلت بطفل صغير، فكيف إذا تمثّلت هذه السلطة بمجموعة من الأوغاد واللئام، والسُّوقة الذين ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ولا يخافون الله، ولا تعرف الرحمة إلى نفوسهم سبيلاً...

في هذه الأثناء بدأت تظهر في البلاد بوادر نهضة فكرية عارمة، طابعها العام ديني خاص، وحقيقتها انفتاح على العلم والمعرفة وحب لمسايرة ركب الحضارة الحديثة مقيدة بقيود الدين والأخلاق والفضيلة، بحيث ترأب الصدع الذي كان قائماً، حتى وقت قريب، ما بين الفكر الديني والحضارة الحديثة، مما جعل الناس، في فترة سابقة، ينطوون على أنفسهم ويبعدون عن الحاكم «الظالم»، ويعزفون عن وظائف الدولة، ويعتبرونها ممارسة ظلم وقهر للناس، ويعتبرون أيضاً أن الرواتب التي يتقاضاها الموظفون من الدولة مالاً غير نظيف وغير مطهّر... هذا بالإضافة إلى أن فئة من رجال الدين هؤلاء كانوا قد بدأوا يتثقفون بثقافة العصر قبل تحصيل العلوم الدينية، وبدأوا يتأثرون بتيارات الفكر الحديث لجهة الانفتاح، والنظر في الأمور بما

يضمن مصلحة الناس، ويحقق لهم الفائدة، ويطوّر وضعهم الاجتماعي، ويعدّهم لحياة جديدة ما عرف مثلها الآباء ولا الأجداد... فانتشرت دور العلم في كل مكان، ومثلها الحوزات العلمية، وكثرت الدعوات إلى الندوات والمحاضرات، ولقاءات الأدباء والشعراء، ورجال الفكر ورجال الدين... من أصحاب الرأي، وأصحاب التوجهات الفكرية المتنوعة. وما كان أحمد منغلقاً على نفسه، كما أنه لم يكن متحجّر الفكر، ولا مضروباً على قلبه، ولا مرتجاً على عقله... فكان يحضر معظم هذه اللقاءات، ويقصد إليها، ويصطحب معه بعض أصدقائه ومعارفه ورفاقه...

ولم يكن هذا الانفتاح عند أحمد على الحضارة الجديدة ليغير شيئاً من عقيدته الراسخة، ولا ليزعزع ما كان قد ثبت في قلبه من اليقين، واعتقد أنه على حق في كل ما يقدم عليه من المواقف، وما يعتقده ويؤمن به من المفاهيم. وما كانت اتصالاته بأئمة المساجد، وأولي الفكر من الناس، والمستبصرين والمبصرين من الأئمة إلا لتثبته على ما كان عليه. فازدادت ثقته بنفسه، وازداد إيمانه بعقيدته، وصار يحس في قرارة نفسه بأنه إنسان من نوع آخر، أريد له أن يقوم بدور معين في الحياة، وكان يشعر بين الحين والحين بفورة النار الكامنة في داخله والتي كانت تثير ـ أحياناً كثيرة ـ غباراً، ودخاناً، ولهيباً، وحرارة... يسارع أحمد إلى إخمادها عندما يحس أن الظروف غير مؤاتية لتورية هذه النار وإضرامها، ويقنع نفسه بأن عليه الانتظار حتى يأتي أمر الله، وما حان بعد «أن يفور التنور»...

وكثيراً ما كانت تستبد به مثل هذه الأفكار، وهذه التصورات

عندما كان يرى من تعسف السلطة في موقفها من أهله وبني قومه، وعندما كان يستبد بهم الحاكمون فيأخذون من أيديهم أرزاقهم وقتات الطعام الذي يقيم أودهم، ويوم تستبد بهم الدولة فتزيد من الضرائب. ويوم تهاجم السلطات الفلاحين، ومزارعي التبغ... وعندما تبخل عليهم بالمدرسة، والطريق، ومشروع المياه... وتحرمهم من المياه التي تجري في أرضهم لتأخذها إلى أماكن بعيدة عنهم، تصعد في الجبال، وتهبط في الوديان لتروي السهول والمدن... ويبقى أصحاب الحق في هذه الماء عطاشى، وكذلك، كانت تثور ثائرة أحمد كلّما قام العدو الإسرائيلي باعتداء على الجنوب في البر أو البحر، وكلّما قصف بنيران مدفعيته موقعاً فأصاب منزلاً، وقتل أناساً، ودمّر منشآت، وخرّب البساتين، وأتلف محاصيل الأرض... ويتمّ ذلك على مسمع ومرأى من العالم أجمعين، أجانب وأقارب، والكلّ صامتون ساكتون، وأبناء الجنوب بصورة خاصة طعم لنيران الحرب، وهدف للمعتدين، والجنوب بوابة الولوج إلى كل البلاد العربية... وكان أحمد يتذكر ما بقي محفوراً في مخيلته من صور الماضي من حرب العام ١٩٤٨، ومن مآسي الفلسطينيين. ومن الرسوم التي حفرتها ليالي الشتاء الباردة عندما كان أبوه يروي له روايات الآباء والأجداد، في صورة مأساة مستمرة ما زالت أطرافها متصلة بالزمن حتى عصره الحاضر...

وكانت لأحمد في كل عام وقفة مع الذات تستمر شهراً أو أكثر، ينصرف فيها إلى نوع من الرياضة الروحية التي تحيي المفاهيم العليا في ذهنه وتثبتها في قلبه، وتقاتل في هذا القلب نزعة الشر والظلم والذل والخنوع، وتُفهم الإنسان بأن حقيقته كإنسان تكمن في تغليب الروح على الجسد، وتغليب المفاهيم العليا في الحق والفضيلة والجهاد. . . على المفاهيم الدنيا في الركون إلى الحياة، والاندفاع نحو الملذات متمثلة في الطعام والشراب والأهواء ولذة الجنس، والمناصب والمال. . . حتى تستمكن هذا المفاهيم منه، ويصير إنساناً بكل معنى الكلمة.

كان ذلك يجري في كل عام مرة، يوم يأتي موسم عاشوراء، ومدرسة عاشوراء التي كان يعتبرها أعظم من أية مدرسة أخرى. وهي مدرسة تجمع في صفوفها وحلقاتها الناس جميعاً، رجالاً ونساءً، من كل الأعمار، وفي كل المستويات، وعلى اختلاف مآكلهم ومشاربهم. ينصرف الناس فيها إلى القيام بما هو ضروري من الأعمال اليومية، وإقامة المآتم للحسين في الليل والنهار، في النوادي الحسينية والبيوت، وفي المساجد والساحات العامّة، ويُدعى قُرّاء عاشوراء إلى الوعظ والإرشاد، والتنبيه. وسرد أحداث التاريخ

الأليم... ويجتهد كل منهم بمقدار ما أوتي من فهم وإدراك وقوّة استيعاب، وطلاقة في اللسان... ينطلقون في المدح، والرثاء، والندب والتلهّف والحسرة، واستحضار مآسي الصالحين من الناس، ومآسيهم الخاصة... وتبقى مأساة الحسين وآل البيت في كربلاء النبع الذي يسقي جميع الغدران من مائه، وتنضح به السواقي في كل مكان حتى ترتوي الأرض من دماء الحسين عليه السلام وأهل بيته، وأطفاله ورجاله... كما ترتوي من دموع الباكين حزناً على ما أصاب الحسين وأهل بيته... وحتى تضجّ السماء ببكاء الناس في كل مكان على ما جرى للحسين وآل البيت في كربلاء، وتختلط بصوت نساء الحسين وزينب في كربلاء، كما تختلط بأصوات الملائكة التي كانت تنزل إلى الأرض، تكبر وتهلّل لفظاعة ما جرى للحسين وأهل بيته، وكأن الحسين كان يقتل في كل ليلة من ليالي عاشوراء، وكأن عاشوراء كانت تحدث كل يوم من الأيام العشرة الأولى من المحرم، وفي كل بيت، وفي كل مكان وفي كل زاوية... ويشارك فيها الناس والملائكة والطير، والزرع... وكل ما في الوجود...

وكم بكى أحمد مع الباكين حتى احمرّت عيناه، وابتلت ثيابه بالدمع، وكم لطم أحمد صدره مع اللاطمين، وندب مع النادبين على الحسين! وكم سار مع المسيرات التي كانت تجوب أحياء القرية من أقصاها إلى أقصاها مساءً، وقبل أن يبدأ الاحتفال ـ في كل ليلة ـ في حسينية القرية، وبعد الانتهاء من الاحتفال في مسيرات

حاشدة، في الظلام، وعلى ضوء الفوانيس أحياناً، والشموع أحياناً أخرى... حتى يسعف القمر الناس بنوره... حتى ساعات متأخرة من الليل، ليستفيق الناس بعدها على يوم جديد من أيام القهر، والذكرى... حتى إذا انتهى موسم عاشوراء ما كانت نارها لتهدأ أو تنطفىء، وإن كانت تخفّ بعض الشيء، لتبقى الأندية الحسينية عامرة كل ليلة أحياناً، ومساء كل نهار خميس ـ ليلة جمعة من كل أسبوع ـ بتلاوة السيرة الحسينية، والندب والبكاء والعويل... وتجديد العهد للحسين بالأخذ بثأره يوماً ما، مع قائم آل محمد... وإعلان البراءة ممن تسبّبوا بهذه الكارثة الإنسانية العظيمة التي ما بعدها ولا مثلها من كارثة، وكم عاد أحمد إلى بيته، وقد اختفى صوته واحمرت عيناه، وتقرّح صدره وظهره من الندب واللطم والبكاء...

وأيقن أحمد، كما أيقن جميع الناس في مجتمعه أن مدرسة كربلاء هي مدرسة دونها كل مدرسة أخرى. وكما أيقنوا أن تراث كربلاء هو الذي أعطى معنى للحياة الساعية نحو الأعالي، في نزعة إلى المثالية في الحكم، وفي التعامل مع الناس، وفي الإخلاص للعقيدة، وفي مقاتلة الأعداء، وفي تنقية الضمير، وطهارة القلب، والإخلاص لله تعالى... والسموّ حتى يصبح الإنسان في مصاف الملائكة، أو قريباً منهم على الأقل. كيف لا، وهو يشعر، ويؤمن ويعتقد بأن الملائكة تشاركه في مشاعره، وتدعوه إلى مثل هذه المواقف، وتؤيده وترعاه... ألا يعمل على إحقاق الحق وإعلاء

كلمة الله؟ وما دور الملائكة؟ أليس دورها في أن تساعده على بلوغ هذه الغاية؟...

ويروح أحمد يداوم على حضور مجالس العزاء الحسينية في كل مكان، ويستفيد منها، ويقرأ كل ما كتب في هذا الموضوع ومن عاشوراء، والعبر التي يمكن للإنسان أن يستخلصها منها... كما راح يغوص في بطون الكتب، يفتش عن الخبر، فينبشه، ويحقّقه، ويحييه، وينشره بين الناس... ويحاول أن يجد السَّند لما يقول في القرآن الكريم، والسنّة الشريفة، ويتخذ ذلك حجة له على من يقارعونه في هذه الأمور... كما كان ينكب على دواوين الشعراء ـ شعراء الحسين عليه السلام ـ فيقرأ فيها ما كتبه هؤلاء من قصائد الرثاء التي اشتهرت عبر العصور، والتي حفظت قلائد على جيد الزمن. فيذكر قصائد من حسّان بن ثابت الأنصاري، مروراً بدعبل الخزاعي، والسيد الحميري، وأبي تمام وابن الرومي والمتنبي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي وأبي العلاء المعريّ... وصولاً إلى بولس سلامة ومحمد مهدي الجواهري... فيأخذ هذه القصائد، ويقرأ ويحفظ، وينغّم ويندب... وكلّما فعل ذلك اشتد زنده، وقويت شكيمته، وثبت منه الرأي، وشعر بصلابة العود، وراح ينتظر، ويرجو الله تعالى أن يجعله من أنصار قائم آل محمد... وينتظر، ولعله لا يطول به الانتظار حتى يشفي غليله.

ثم انتظم أحمد في مدرسة عاشوراء واعظاً بما حفظ من الوعظ، ثم باحثاً ومنقباً، ثم أديباً، يصوغ الكلام أجمل صياغة، ويكتب

البحث فيجيد، ويعالج القضية أحسن معالجة، وبكلام لطيف يعجب السامعين، حتى صارت له شهرة بين أقرانه، وأهل قريته عموماً، كما كان يلقى كل مساعدة ممكنة من شيخه وشيوخ آخرين.

ولم يتورع أحمد عن المشاركة في إحياء اليوم العاشر من المحرم، على نحو ما كان يفعل أهل زمانه وأترابه، فكان يشارك في الاستماع إلى الراوي يروي سيرة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، حتى إذا ما انتهى «المصرع»، كان يسير مع المسيرات الحاشدة التي كانت تنتهي بضرب الرؤوس بالسيوف، فتسيل دماؤه ـ كما تسيل دماء غيره ـ وتخضّب لحيته، وتسيل على وجهه، وتلطّخ ثيابه... وكثيراً ما كان يغشى عليه، فيتلقفه بعض مساعديه ممن كانوا يرافقونه في هذه المسيرة... حتى إذا أفاق، وعاد إليه رشده، وجدته سعيداً بما فعل، وكأنه قد انتقم للحسين من قاتليه، أو لأنه ساوى نفسه بالحسين، وسالت دماؤه كما سالت دماء شهداء كربلاء، فهو إذن مثلهم، وإن لم يقض في هذه المعركة كما قضوا في كربلاء. ولكنه لم يستمر طويلاً في هذا العمل، إذ سرعان ما تغيرت نظرته إلى الأمور، وصار يرى أن كربلاء لا تحتاج إلى إنسان يسفك دمه وينتقم من نفسه، بل هي تحتاج إلى إنسان يحفظ دمه لينتقم من (الأعداء)، كما تحتاج رجلاً جلداً صبوراً، جسوراً مقاوماً للزمن وللأحداث، و«سنحتاج هذا الدم فيما بعد، فلا يجوز أن نفرط به فيذهب هباء» كما كان يقول لرفاقه عندما يسألونه عن سبب إقلاعه عن عادته القديمة.

ومن جملة ما نشأ عليه أحمد وتأصل فيه تلك الصلة الوثيقة بينه وبين الناس، الذين كان يحبهم، كما كانوا يحبونه، وكان يعايشهم في أفراحهم وأتراحهم، ويخرج إليهم في المناسبات، ويلقاهم في المسجد، وفي دار المسجد والحسينية، وفي المآتم والمناسبات، فيتحدث إليهم في كل شيء.

كان أحمد يسمع تأوُّهات الناس، وشكاياتهم، وكان يحب أن يستمع إليها، وما كان أحد أشد من أحمد شغفاً بها، ولا حزناً من أجل هؤلاء الناس الذين يعانون وحدهم، ولا يستطيع أحد أن يقاسمهم هذه المعاناة التي عمت الجميع، فصاروا فيها شركاء، وما كان أحد منهم يشعر أن إنساناً يمكن أن يأتي من خارج ليخفف عنهم ما يجدونه، وما يعيشونه من الواقع الأليم. أمّا شغف أحمد بهذه الأحداث فلأنه كان يرى فيها علامات على قرب حصول الفرج، وتحقق الرؤى والأحلام، وصدقاً لما وعد الله تعالى به عباده المؤمنين من الفرج، ووفاء بالعهد الذي قطعه الله تعالى لعباده الصالحين ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ الذي ارتضاه لهم، وليصلح أمورهم، وليرسل إليهم من يقيم دولة الحق، فيكونون هم من أنصارها، والمدافعين

عنها، والعاملين على تثبيتها... فيكاد يرقص فرحاً، ويكاد قلبه يخرج من صدره من شدة حبوره بما يفكر فيه... حتى إذا عاد إلى بيته، وخلا بنفسه يسترجع ما سمع من الناس، ويتفكر في ما رأى من أمورهم، لا يساوره شك أبداً بما يفكر فيه، ويردد فرحاً: إنهم يرونه بعيداً، ونراه قريباً...

ما كان أحمد من أولئك الناس الذين ضلوا الطريق، وارتكبوا الأخطاء، فتاهوا في بيداء الضلالة يفتشون عن مخرج، متخفين عن الناس، مطأطئي الرؤوس، يلبسون براقع تموّه واقعهم وحياتهم. يستحون من ماضيهم، ويحاولون ستر قباحاته وسيئاته ليستطيعوا أن يعودوا إلى الحياة، وإلى المجتمع الذي فصلتهم عنه قباحاته وتلك السيئات... ولا كان أحمد ذلك الطالب الفاشل في دراسته، والذي يبحث عن زواريب ملتوية ومظلمة يضيع فيها خياله، ولا يعرف أحد عنه شيئاً إلا الصورة الأخيرة التي يظهر بها، وقلما تدوم هذه وقتاً طويلاً، وما كان يحاول أن يخفي خيبته في درس ولا في علم، بل كان من أوائل طلاب صفّه، بل كثيراً ما كان يحتكر لنفسه المركز الأول بين رفاقه، يحبسه عن الناس شهوراً، وسنوات، دون أن يخفف ذلك مما كان عنده من السجايا الطيبة، ومن خفة الظل، والنكتة اللطيفة، والابتسامة الدائمة، والميل إلى المزاح الخفيف اللطيف المحدود بحدود الآداب والأخلاق، ولا يتجاوز ذلك إلى سخف، ولا إلى فجور أو تهتك. وكان يسير في حياته الدراسية في أناة، وثبات، ومن نجاح إلى نجاح كان آخره أن حصل على

الشهادة الثانوية بتفوّق، وضعه على أعتاب مرحلة جديدة في حياته، مرحلة البحث عن عمل يعيش منه، ويساعد أباه في تحسين أوضاع العائلة، ورسم صورة جديدة للحياة التي تتوق إلى وضع عائلي لا هو محسوب بين مواقع الأغنياء، لأن أحمد وأهله كانوا لا يستلطفون هذه الطبقة من الناس، وإن كانت جذورهم تمتد أحياناً لتصلهم ببعض هؤلاء، على غير فخار، ولا اطمئنان ضمير... ولا هو يرضى بالبقاء في وهاد الفقر الذي يوقع الناس في معظم الأحيان، في مستنقعات الرذالة والأوهام، فتمرض نفوسهم قبل أن تمرض أجسادهم، ويشقون في الحياة شقاء لا حدود له، وقد يوقعهم هذا الشقاء في المحذور الذي تختلط فيه المفاهيم، ويحجب الشقاء نور العقل، ويضيع الإنسان في ضباب الشقاء والهم والحزن والكآبة... والمجهول.

ما كان أحمد ينسى وهو يفكر في مستقبل العائلة هواجسه وهمومه الأساسية وما كان ينسى تطلعاته الاجتماعية، وأفكاره الدينية. وما كان قادراً أن يبعد من نفسه تأثير شيخه فيه، ولا ذلك الرصيد الفكري الذي كوّنته مطالعاته ودراساته واهتمامه التي قضى في سبيلها ساعاتٍ، وأياماً وأعواماً... وشكلت عنده قناعات بما يشبه النظرة الفلسفية إلى الأمور بأن ما يعيش فيه الناس من هموم الماضي، وأحزان الحاضر... والنفسية القاتمة السوداء الداكنة التي ينظر الناس من خلالها إلى واقعهم وإلى ما يجري حولهم من الأحداث... سوف تنجلي، وسوف يشرق الصبح «بطلوع الفجر»،

وكان أحمد يفسّر «طلوع الفجر» دائماً بأنه لن يكون إلا بظهور القائم من آل محمد، على نحو ما قرأ وما عرف وما خبر، وما أخبره به التاريخ... لأن «طلوع الفجر» هذه المرة سيكون «طلوع الفجر الصادق» الذي لا يترك لبساً، ولا تختلط معه الأمور ولا يعود الظلام ليسيطر، بل ينتشر النور كل النور، ليعمّ الأرض كل الأرض، وتشرق به السماء كل السماء، ويكون كل ما في الأرض وما في السماء خادماً لهذه الغاية، مسبّحاً بحمد الله، موقناً أن الفرج آت لا محالة، كما يوقن بقيام دولة الحق، واندحار دول الباطل والضلالة...

هذه الأفكار كانت تسيطر على أحمد وهو يفكّر في مصيره بعد نيل الشهادة الثانوية، وفي العمل الذي سيقوم به في حياته، وكيف يمكن أن يجمع بين العقيدة والعمل، وكيف يمكن أن يسخّر العمل لخدمة العقيدة، ويجعل العقيدة هي الباعث والمحرك لهذا العمل، ليكون بوحي منها، وعلى هديها، وفي خدمتها...

وكان أحمد يتوقف حيناً بعد حين عن الاسترسال في الأحلام ليقف عند بعض القضايا التي كانت تقطع حبل أحلامه، ويعود ليزين هواجسه وطموحاته بميزان العقل... وكثيراً ما كانت تضيع المقاييس عنده، ويفتقدها، وما كان يحب أن يستعير مقاييس أحد، ولا أن يَزِن الأشياء بموازينهم، لأنه لم تكن له ثقة كبيرة لا بمقاييس الآخرين ولا بموازينهم... حتى إذا أعاد بناء كل شيء: بناء الموازين الدقيقة. ووضع المقاييس الثابتة، كان يلجأ إلى وزن

الأمور، وكان يلتزم بالنتائج، ولو أنها كانت تأتي في أحيان كثيرة على غير ما يحب وما يشتهي... فكّر أحمد في العمل الذي يمكن أن يقوم به في المستقبل. وما كان هذا الأمر ليشغل باله لو أنه كان يفكر فقط في عمل يؤمن له المال ليعيش حياة مستقرة هادئة، ويستطيع أن يساعد عائلته وأهله على النحو الذي كان يرغب فيه، وإنما كان يريد فوق ذلك كله أن يوفر له هذا العمل القدرة على تحقيق أفكاره ومبادئه، وما يعيش عليه من الآمال في أن يكون عضواً فاعلاً في «دولة المستقبل» الموعودة التي سوف تكون دولة لا كالدول، بل تكون «الدولة الفاضلة» على نحو ما وعدت به السماء، وليس على نحو ما «تساخفت» به قريحة أفلاطون، أو «دولة النفاق» التي استساغها الفارابي. وتحدّث عنها حديث الواقع الذي لا مفرّ منه معتبراً أن هذا الذي كان يراه هو شريعة الحياة، ناسياً أنه كان من «ضلالات الحكام» التي ما استطاع الفارابي أن يتجاوزها ليقول الحقيقة، «ولعله ما كان يسمح له، ولا هو كان قادراً على قول الحقيقة...» بفعل ما كان يحيطه به عصره من الترهات والأباطيل، حتى صار الباطل وكأنه هو الحقيقة...

وما كان أحمد يكثر التفلسف في هذا الموضوع، ولا هو مضطر للإكثار من هذا التفلسف. بل إنه فكر موضوع وجده في بطون الكتب، ووصل إليه عبر الأجيال، واقتنع به، واعتنقه مذهباً وعقيدة ملأت عليه تفكيره... فلا داعي إذن للبحث في أساس هذا الموضوع. وإن كان يستغرق مراراً كثيرة في البحث عن الصورة

التي سوف يكون عليها هذا الحكم الجديد والدولة الجديدة، دولة «قائم آل محمد». حتى إذا وصل في تفكيره إلى هذه النقطة، كثيراً ما كان يشعر أن مثل الكهرباء تجتاح رأسه في هدوء، وتخدّر عقله، وتشل منه الحواس ليرتقي بفكره إلى حيث هو لا يعرف ولا يدري. حتى إذا حطّت سفينته على برّ الأمان، وعاد إليه ما خُيِّل إليه أنه فقده من الإحساس والشعور، كان يندفع إلى التفكير في ما يجب عليه عمله ليكون «مفيداً» في تلك الدولة، ويكون واحداً في الرّكب الذي يسير إلى الغاية المرجوّة... وكثيراً ما كانت تترافق حالة عودة الوعي والمشاعر عند أحمد بنوبة من البكاء، تنهمر الدموع معها على خدّيه، وهو في حالة من الرّضا والتسليم للإرادة الإلهية، والدعاء بأن يمنَّ الله تعالى عليه بتلك السعادة أن يكون من أتباع القائم.. حتى إذا انتهت تلك الحالة، كانت تعود نفسه ممتلئة غبطة وحبوراً وسعادة وأملاً، ويقيناً بأن أفكاره هذه سوف تتحقق، وأنه سيكون ممن كتب الله تعالى لهم شرف المشاركة في تحقيق الإرادة الإلهية، وقيام دولة العدالة، وأن يكون من جند القائم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً...

ويعود أحمد ليفكّر: ما العمل الذي يمكن أن يقوم به، ويرضى عنه الله ويخدم القضية التي يؤمن بها؟

ما خطر ببال أحمد أن يعمل يوماً في التجارة، هذا مع علمه أن التجارة كانت «مهنة» العائلة كلها في أول منعطف في حياتها بعد أن أعياها السعي للحصول على حياة آمنة مستقرة وكريمة عن طريق

الزراعة. فتعاون الأب والأخ الأكبر على العمل في التجارة بأبسط أشكالها في بداية الأمر، واستطاعا أن يوفّرا للعائلة ما تؤمّن به بعض الاستقرار، كما استطاعت هذه التجارة أن توفّر لأحمد وأخوته بعض المال الذي يفتح لهم درب العلم، إذ كثيراً ما كانت أبواب المدارس في ذلك الوقت مرتجة لا تفتحها إلا كلمة السرّ السحرية: المال، وبهذه الكلمة السحرية استطاع أحمد أن يتابع دراسته دون انقطاع، واستطاع بعض أخوته أن يتبعوه في هذا الدرب الطويل، ولو أن العائلة بقيت محتاجة إلى مساعدات تأتيها من هنا وهناك، وتساعدها في دفع أولادها إلى العلم الذي كان يرى فيه الناس أهل زمنهم أنه الباب الأفضل للوصول إلى الأعالي، وأن أية درجة في سلم الأعالي لا تستند إلى العلم لا يمكن أن تثبت أو أن تستقر أو أن تدوم. كما أنه لا مجال للعودة إلى الزراعة من جديد، ولا قدرة على الخوض في مجال الصناعة، ولا كان أحمد مفطوراً على الصناعات ولا هاوياً لها، وإن كان لا يكرهها... فما العمل إذن...!

كانت في هذه الأثناء قد بدأت تنتشر في البلاد روح جديدة تتأتى عن انبعاث شعور جديد بالعزة والكرامة والعنفوان... وعاود الناس شيئاً من الثقة بالنفس بعد عن انزاح عن أعناقهم نير الحكم العثماني، وبعده نير الانتداب الفرنسي، وبدأت تلمع نجوم فوق أكتاف شباب من الأجيال الجديدة في سماء القاهرة يوم قامت ثورة حزيران للعام ١٩٥٢، وصعود نجم بعض عناوين الفكر القومي في

الشام، والتماع سماء العالم العربي كله ببوارق ورعود الفكر القومي، والتماع بعض أسياف المعتصم، وسيف الدولة، وأبي فراس الحمداني. . . وبعد أن تذوّق الناس ترياق المتنبي الذي يحيي النفوس الموات، ويحمل أعلام العنفوان والكرامة، ويثير المشاعر ويجيّش الناس في «جيش الوهم» الذي كانوا يحلمون أنه سيعود يوماً ما. . . ويطول الانتظار دون أن يمنعهم ذلك من البقاء طويلاً تحت وطأة الحلم الذي يمتد ويمتد. . . ولا ينتهي. . . يمتزج كل ذلك بمشاعر الحزن والأسى لما أصاب المسلمين والعرب في فلسطين، تغذّيه روح النقمة حيناً، والحسرة، وحب الانتقام والثأر لكل دم مهدور، ولكل حلم ضائع، ولكل عرضٍ انتهك، وكل كرامة ذبيح. . . فيعيش الناس جميعاً على حلم الانتقام واستعادة الكرامة. وإذا كان الضعف والوهن قد أصاب بعض الناس في بعض الأحيان، وغلبتهم الخيبة، وضاعت آمالهم، فلا يمكن لمن تربى تلك التربية التي نشأ عليها أحمد أن يستكين. وإذا كانت الآمال ما زالت تراود النفوس منذ ألفٍ وثلاثمائة عام وما يزيد، لتنتقم ممن قتلوا الحسين، ونكّلوا بآل بيت محمد، وإبدال الواقع الظالم، والانتصار للمظلومين. . . وعاش على هذه الآمال جيل من الشباب، ورضعوها مع الحليب، وشاهدوها تمثيليات تستعاد سنة بعد سنة، ويوماً بعد يوم، ويعلمها السابق للاحق، ويعيشها الناس جميعاً واقعاً وحقيقة ومعتقداً. . . فهل يمكن لمثل هذه الأجيال أن تستكين؟

وكانت نفس أحمد قد امتلأت بهذا كله: امتلأت بأخبار كربلاء وما جرى فيها، وبأخبار ما قبلها وما بعدها. وعاش تراثه الشعبي والفكري منذ نعومة أظفاره. وفتح عينيه على العيون التي تذرف الدمع حزناً على قتلى الظلم منذ زمن بعيد بعيد، كما فتحت نفسه على أمل الانتقام من الأشرار، والانتصار للمظلوم من ظالمه... وبقيت أحاديث شيخه ترن في أذنه، وبقيت تعاليمه محفورة في نفسه لا يحيد عنها... ثم لا ندري ما الذي بهر عينيه: أهو لمعان سيوف الانتقام في أجواء معركة قادمة موعودة يوم «تقول الشجرة والصخرة للمسلم: يا مسلم، إن ورائي يهودياً تعال فاقتله»، ويتخيّل أحمد نفسه واحداً ممن يستجيبون للنداء، ويكر، حاملاً سيفه منتقماً لكل دم زكي هدر في فلسطين...؟ أم أنه بريق «نجوم العظمة» تلمع فوق أكتاف بعض ضباط الجيوش العربية، وكادت تفقده وعيه، وتخرّب عليه إحساسه السليم..؟ أو أنه مزيج من هذا كله دفع أحمد إلى التفكير في الانخراط في سلك الجندية، ليكون يوماً ما ضابطاً من ضباط جيش بلاده، ويقود ـ يوماً ما ـ كتيبة من فرسان النقمة، بسيوفها وخناجرها، ومدافعها، ودباباتها، وبوارجها... ليوم النصر. والمساعدة في إقامة دولة الحق والعدالة؟..

وكان أحمد قد شهد من الأحداث السياسية التي سيطرت على المنطقة ما قبل نكبة ١٩٤٨ وإخراج الفلسطينيين من ديارهم، واحتلال أراضيهم، وتشريدهم في البلاد، والمجازر التي ارتكبت في حقهم... وهو ما زال يذكر بعضاً من أحداث تلك الفترة،

وكان في وقتها فتى يافعاً، وكان شديد الانفعال، وشديد التأثر بما يحصل، بحيث إنه ما كان من السهل عليه أن ينسى تلك الأحداث، وما رافقها من إذلال الفلسطينيين، ونكبة يتحمل وزرها العرب والمسلمون جميعاً، ويعيشون في ظلها، وفي أجواء الاستكانة والمذلة، لا ينتصر لهم أحد، ولا ينتصرون لأنفسهم، ولا يستطيعون أن يكون لهم دور فعال على أرضهم وفي بلادهم، ولمصلحة أهلهم... ويستبدّ بهم الغربيون، ويطمع فيهم الطامعون... مهما كانت العوائق والحجج التي يحتجّ بها المحتجّون ليرفعوا المسؤولية عن أنفسهم.

ويرى أحمد بأم العين وفوداً من الفلسطينيين ينزلون ساحة قريتهم، في مسكنة ومذلة، ويضعون أمتعتهم هناك، ويبحثون عن مأوى، ومسكن يحميهم المذلّة وإراقة ماء الوجه، فلا يجدون أحداً يسارع إلى نجدتهم، وإن جاءت المساعدة متأخرة، فقد كان للوقت المسموح بين النزول في ساحة القرية، والنجدة وتحضير المسكن لهؤلاء القادمين ساعات طوال من الانتظار المتلف للأعصاب، والعيون التي تنظر شزراً، أو تلك التي تتطلع في برود وبلادة، وكأن شيئاً مما يحصل لا يعنيها... حتى إذا عاد أحمد إلى منزله، وجد أناساً من هؤلاء قد افترشوا أرض الدار، وهم أصدقاء قدامى لجدّه، وانهمكت العائلة كلها في إيجاد المكان المناسب «للضيوف ـ الأصدقاء» الذين لا يعلم أحد كم ستطول ضيافتهم لعائلة أحمد، وما سيكون من أمر هذه «الزيارة» غير المسبوقة، ولا إلام ستؤول.

وأنهى أحمد عامه الدراسي بنجاح كبير، وكان من المجلّين في مدرسته، ومن الناجحين في الامتحانات الرسمية في سنة عزّ فيها النجاح، وما فاز بالامتحانات إلا المتفوّقون. وقد كان فرحه بالنجاح كبيراً. فانصرف ـ لمدة من الوقت ـ يلهو ويلعب مع رفاقه، ليقطف ثمرة هذا النجاح العظيم فرحاً وسروراً وُعد بهما، ثم هو صاحب حق في ذلك: فمن يتعب وينجح يحق له أن «يستريح».

وما كان لأحمد أن يستريح، ومن أين تأتيه الراحة وقد أرّقه وأقضّ مضجعه موضوع اختيار الاختصاص المناسب، وقد احتار في الأمر، فأبوه كان يريده مهندساً، وأمه كانت تريده طبيباً... وهو ما فكّر في هذا ولا ذاك، ولكنه فكر في أن يكون جندياً، يخدم بلاده، ويلبّي منادياً كان يناديه من أعماقه أن أقدم، وليس لك إلا هذا الطريق يوصلك إلى ما تريد...

ويصمم أحمد على أن يكون جندياً في جيش وطنه، ويسعى إلى ذلك مع عدد من رفاقه كانوا يفكرون مثل تفكيره، ويتعاونون في سبيل الوصول. ويبذل كثيراً من المساعي... ويصل الجميع، ولا يصل أحمد إلى تحقيق مرامه. وعندما يسأل عن السبب لا يجده مقنعاً، ويعرف أن مثل هذه الوظيفة ما كان الوصول إليها ممكناً دون مساعدة

رجال السياسة. وكان أحمد يأنف أن يتوسط أحداً من هؤلاء ليوصله إلى مرامه... وقضى سنة من حياته يقوم بأعمال التدريس في المدارس، وفي البيوت... ليؤمّن مصاريفه اليومية، ويدّخر بعض المال لوقت الحاجة. ويتسقّط أخبار الوظيفة، ويتهيأ لإعادة الكرة، ودخول الجيش، وقد اعتبر أن تلك مهمة لا بد من تحقيقها... حتى إذا أزف موعد الدخول إلى المدرسة الحربية، وتقدم أحمد للامتحان، كان من الناجحين. وأقيمت الأفراح بهذه المناسبة، ووزعت الحلوى، واهتمت العائلة كلها بالحدث السعيد، وبالنبأ العظيم أن يصل أحمد إلى مثل هذه الوظيفة التي كانت في وقت مضى من الأحلام النادرة، وقلّ الحالمون بها، كما قلّ الطامحون إليها، لأنه كانت في قرارة نفوسهم أن مثل هذه الوظيفة لا تعطى لهم، ذلك أنها موقع من مواقع السلطة، والسلطة ليست لأحمد وأمثاله، إن لم تكن محرّمة عليهم. ومن خلال هذا التفكير كان وصول أحمد إلى هذه الوظيفة بمثابة الحدث العظيم للكثيرين.

أما أحمد فقد أخذته العزة بهذا النجاح، فكان يمشي معتزاً بنفسه، يعرّض كتفيه فعل أبطال المصارعة، ويتهادى في مشيته، ويعتمر قبعة طلاب المدرسة الحربية بفخر واعتزاز... وكادت هذه الوظيفة أن تغيّر بعض طباعه وسجاياه، لولا أنه التفت إلى ما يجري، وأيقن أنها ليست هذه هي الروح التي تربى عليها، ولا هذا هو الخلق الذي تخلق به، وأنه لا يليق برجل ملتزم بالمبادىء الأخلاقية والقيم الدينية أن يكون هذا مسلكه بين الناس، فاعتدل في

كل تصرفاته. ولعل شيخه هو الذي أوحى إليه بهذا الاعتدال، وكان أحمد ما زال يتردد على شيخه، ولا يتركه أبداً، ويحضر مجالسه كعادته... إذ أن السعي في طلب الوظيفة، ومحاولة الوصول إلى مركز القيادة، والدور الريادي في مجتمعه لم يمنعه من الاستمرار في النهج الذي كان قد اختطه من قبل. وبقيت نفسه ممتلئة بالإيمان الذي كان يعمرها، وبقيت كل أعماله تأتي بوحي من ذلك الإيمان، وإن كان الهوى والشباب، وبريق الآمال، ولألاء الوظيفة والقيادة يشغله في بعض الأحيان، ويحرفه عن الجادة التي وطّن نفسه على السير فيها.

ويتخرّج أحمد من المدرسة الحربية ضابطاً، وينخرط في السلك يعمل بكل نشاط وإخلاص، وولاء للأمة والوطن أكبر من ولاء الآخرين، لأنه كان يعتقد أن الأمة لا يمكن أن تفيق من كبوتها إذا لم يخلص لها أبناؤها، ويكون إخلاص هؤلاء الأبناء في تحمّل المسؤولية كاملة، وفي جميع الميادين، ولم يكن أحمد يرى أولى من الضباط بخدمة الأمة والمحافظة عليها، وهو يعرف ما جرى أثناء حرب العام ١٩٤٨، وما لقيه الفلسطينيون من الهوان، ويقدّر مقدار الكارثة التي حلّت بالعرب والمسلمين. ويعرف الكثير من أخبار حرب العام ١٩٥٦ بين قوات التحالف الثلاثي ـ بريطانية وفرنسا وإسرائيل ـ ضد مصر، واحتلال قناة السويس. كما كان قد نشأ على ما كان يملأ المنطقة كلها من أخبار الثورة المصرية، والاتجاه العربي الذي سارت فيه، وما كانت تمثله مصر ـ منذ القديم ـ من

ريادة إسلامية عامة، بصرف النظر عما كان يحصل من انقسامات وشقاقات في الفكر القومي والديني... كما عاش أحداث الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا في العام ١٩٥٨، وتابع أحداث ثورة العراق في هذا العام نفسه... وكانت هذه الأحداث جميعها مما يُمدُّ أحمد بمفاهيم جديدة، ويزيده خبرة في الحياة، ويوسع آفاقه فلا يستسهل الأمور، ولا هو يستعظمها أيضاً. وقد أفادته هذه الأحداث ـ بعد قراءتها ـ بأن المستقبل حافل بالأحداث التي قد تكون أقسى من هذه التي شاهدها بعينه، وعاش أحداثها، أو قرأ عنها. وعاش حياته في حذرٍ وترقّب، وموقفه دوماً: يجب أن ننتظر لنرى ما الذي سيحمله معه الغد من مثل هذه الأحداث...

وانطلق أحمد في حياته الجديدة يعمل بكل جد واجتهاد، ويحاول أن يستفيد من كل ما يجري معه، وما يدور حوله، ويحاول أن يزداد ثقافة وعلماً ومعرفة. وازدادت تلك الروح المتوثبة التي كانت فيه، وتدفعه إلى الصبر، والأناة، ومحاولة اكتناه المجهول، وتعلّم كل العلوم، وممارسة كل الصناعات، والاجتهاد للتفوق في موضوع عمله واختصاصه... على أن هذه الاهتمامات والمشاغل التي أخذت من وقت أحمد الكثير، لم تمنعه من أن يبقى ذلك الإنسان المهذّب اللطيف مع الناس، دون أن يكون اللطف عنده مظهراً من مظاهر الضعف أو الخوف. فكان يهتم بمرؤوسيه، ويرعاهم، ويحاول أن يؤثر في سلوكهم وتعاملهم مع الناس، كما يحاول أن يطرح عليهم بعض مفاهيمه التي ما كانت لتلقى الرفض

من أحد، وإن لم تكن تلقى تجاوباً منهم جميعاً... وقامت بينه وبين هؤلاء المرؤوسين علاقات ودّ وصداقة، على عكس ما يقوم بين الضباط ومرؤوسيهم من علاقات قائمة على أساس الرتبة، والقيادة، والأفضلية، والأمر والنهي... وإلزامية هذه الأوامر والنواهي، وحدتها أحياناً كثيرة.

أمّا عامة الناس، فقد وجدت في أحمد نصيراً للمظلومين، وملجأ لأصحاب الحاجات، يطرقون بابه ساعة يشاؤون، ويعرضون عليه مشاكلهم وحاجاتهم، ويطلبون مساعدته في حلّها، كيف لا والضابط ـ في ذلك الوقت ـ مصدر السلطة، وصاحب القوة والنفوذ، وكلمته لا ترد، والناس يهابونه ويخافون منه... «ويكفي اتصال منه بالتلفون، أو برسالة صغيرة، أو بطاقة يحملها صاحب الحاجة إلى الموظف المختص لتقضى هذه الحاجة» وليعود صاحب الحاجة مسروراً مغتبطاً، يلهج لسانه بالثناء والشكر، ويعبق مديحه في أجواء القرية كلها، ويستنشق الجميع ذلك العرف الطيب، دون أن يغير ذلك من سجايا أحمد، ودون أن يشعره بالتفوّق والهيمنة، ودون أن يأخذه عز السلطة ويذهب بعقله كما كان يفعل بالآخرين.

والواقع أن أحمد ما تخلّف عن قضاء حوائج الناس، ولا اعتذر لإنسان جاءه قاصداً في حاجة، وما لم يكن قادراً على قضائه من حوائج الناس كان يستعين عليه بما عنده من صداقات، وما له في قلوب معارفه من محبة وتقدير واحترام. فكانت الحوائج تنقضي دوماً على خير ما يرام.

وما كان أحمد ينتظر من الناس حمداً ولا شكوراً، وما كان يهمه ما يقول الناس عنه، لأنه كان منشغلاً في التفكير في أمور أخرى لا تبارح قلبه وعقله، وقد صار في نفسه ما يشبه العقيدة أنه خلق لمهمات أعظم من هذه كلها، وما عليه إلا أن ينتظر حتى يأتي الوقت الموعود، ولعل هؤلاء الناس يكونون له أعواناً في ذلك الزمن الآتي. ومن يدري، فقد يحتاج إلى كل واحد منهم!.

وامتلأت نفس أحمد بالأحداث التي عاشها، وشاهدها، وقرأ عنها... ووعاها، وصار يحدث عنها، ويستشهد بها في حديثه، وإن كانت عقول الكثيرين من زملائه لم تجد فيها ما يمثل تحوّلاً نحو الأفضل، ونهوضاً، وحياة بعد موت... وصار أحمد، ومعه نفر يعتقدون مثل ما كان يعتقد، يميلون إلى اعتبار هذه الأحداث من الأمور التي تصيب الأمة، فتكبدها الخسائر الفادحة في الأموال والأرواح، وتؤخر مسيرة الحضارة والتطور، والنمو الاقتصادي... وتعيدها خطوات إلى الخلف بدلاً من تدفع بها إلى الأمام... وإن كان يتردد، في مرات كثيرة، في اعتبارها «كوارث»، ويعمل ذهنه، ويجتهد ورفاقه وشيخه، في تفسير ما يجري، وما كانت تفسيراتهم لهذه الأمور تقوم على اعتماد العقل وحده في التحليل والتفسير، للخلوص إلى نتائج صحيحة... ولكن هذا التفسير كان يستند إلى خلفيات عديدة عمرت بها نفس أحمد وصحبه وشيخه أيضاً، بعد أن استمكنت الأخبار التي قرأها، والأحاديث التي استنبطها من بطون الكتب، واجتهد في أن يجمعها ويحفظها، ويتسلح بها «ذخيرة» للمستقبل، ظلت هذه الأخبار تسيطر على تفكيره، وتحكم الكثير من تصرفاته.

وإذا كان المعلوم من أخبار أحمد واتجاهاته قد حدد خطوط مسلكه في كثير من القضايا، فما من أحد يستطيع أن يتحدث عن خلفيات أخرى كانت تعتبر من أسرار تلك الجماعة التي كان يقودها ذلك الشيخ، وينتسب إليها أحمد.

أدرك أحمد في قرارة نفسه أن أمراً خطيراً يحيق بالأمّة، لأن ما يجري من الأحداث يشبه تلك الأوصاف التي تحدثت عنها الكتب، واعتقد أن الأمة تمرّ بأدق الظروف في حياتها وأخطرها... وأن هذه الظروف الخطيرة والدقيقة لا بد سوف تتمخض عن شيء يقلب الأمور رأساً على عقب، ويعيد ترتيبها بشكل آخر، كما يعيد تنظيم هذا المجتمع المضطرب، ويضع حداً لما يجري من الأحداث الجسام، ويمهّد للحركات الإصلاحية الموعودة بأن تنطلق بما يحفظ مصلحة هذه الأمة، ويؤمن لها الخير والسعادة.

وراح أحمد يحسّ بأن عليه ـ في هذه الظروف ـ مسؤوليات جسام، وأحسّ بأنه يكبر ويكبر حتى لا يعود كبقية الناس، كما اعتقد أن ما عنده من العلم لا يشبه ما عند غيره بل يفوقه بكثير، واعتقد أنه سوف يكون له دور أهم بكثير من دور الآخرين، وأن ما ينتظره من المهمات لا تنتظر سواه، وأن موقعه الذي هو فيه يؤهله للقيام بهذا الدور، وليس غيره مؤهلاً بنفس المقدار...

راحت مثل هذه الأفكار والهواجس تملأ نفس أحمد، واقتنع بكل ما مرّ بخاطره منها. وما عاد قادراً على التمييز بين الأهواء

ووقائع الأمور، وعاش الوهم حتى صار هذا الوهم هو حقيقة ما يفكّر فيه ويقود كل تصرفاته وأعماله...

وعزف أحمد عن الزواج، لأنه اعتقد أن من يعدّ نفسه للقيام بالمهمات الجسام التي تنتظره لا يمكن أن يفكّر بمثل هذه الأمور، ولا وقت عنده للتفكير فيها. و«الزواج من المشاغل الثانوية»، و«لا كان زواجٌ يثني الإنسان عن القيام بالواجب الدينيّ الجهاديّ»... ومثل هذا كثير مما كان يتردد على لسانه. وكان الناس يسمعونه فيفهمون بعضه، ولا يفهمون الكثير منه، ولا يستطيع الكثيرون منهم أن يدركوا ما الذي كان يدفعه إلى مثل هذه الأقوال، وما الذي كان ينوي عمله، ولا ما كان يعتقده من حصول أحداث راح يلمّح إليها دون أن يصرّح بها، ويعتبر نفسه وحده المعنيّ بها، والناس ـ معظم الناس ـ في ذلك «تبعٌ ورعاع وعوام... بحاجة إلى من يقودهم، ويأخذ بأيديهم إلى ما فيه صالحهم لأنهم لا يعرفون مصلحتهم ولا ما يخبئه الدهر لهم من الأحداث»؟

وإذا كان الناس غير قادرين على تحديد ما كان أحمد يفكّر فيه، إلا أنهم كانوا قادرين على مراقبة سلوكياته، ومعرفة ما يقوم به من أعمال... وقد لاحظوا عليه في المدة الأخيرة انصرافه إلى العبادة، وكثرة تردّده على شيخه، وإكثاره من الصلاة والعبادة، وإطالة الركوع والسجود في الصلاة، والإكثار من الدعاء، وإحياء جميع المناسبات الدينية... بما كان يلفت النظر، وبما لم يعتادوا عليه، وبخاصة من العسكريين الذين كثيراً ما تستهويهم مظاهر

الحياة، وتشدّهم بهارجها إليها، وتغويهم السلطة، وتفتنهم الرئاسة والقوّة. . . وصار مسلك أحمد حديث الناس، وكان يسمع هذا الحديث، فلا يقول فيه شيئاً، ولا يردّ عليه.

والغريب في الأمر أن هذه الأفكار التي أخذت برأس أحمد، والمسلك الذي اعتمده في حياته. . . ما أساء إلى واقعه الوظيفي، بل زاده ثقة بنفسه، كما زاده إخلاصاً في عمله، ورغبة في تحسين وضعه، وأفاده صبراً، وبالاً طويلاً، بحيث كان لا يغضب من أحد، ولا ينزعج مما يسمعه، ولا يضايقه شيء، ولا يستثيره شيء، كما كان يتواضع للنّاس، ويميل إلى الوعظ والإرشاد. . . وكثيراً ما كان الناس يسمعون بعض أقواله فلا يفهمونها، دون أن يثير ذلك في أنفسهم أي شك، وإنما بعض التساؤلات التي ما كانت ترتسم في الذهن إلا لتنسى، دون أن تترك أي أثر في نفوس السامعين.

- ١١ -

وفي صبيحة أحد الأيام يستفيق أهل أحمد من النوم، وينصرف كل منهم إلى عمله المعتاد، ولا يخطر ببال أحد أن يسأل عن أحمد، ولا يحاول أحد أن يعرف من أمره شيئاً، وقد رسخ في ذهن الجميع أنه أفاق باكراً من نومه، وقام بكل ما كان يقوم به من الأعمال الروتينية اليومية... ثم انصرف إلى عمله باكراً، وكان أهله قد اعتادوا على مثل هذا الأمر لكثرة المهمات التي كان يكلف بها، والتي كانت تقتضي منه الخروج المبكر عن البيت، والتغيب أياماً فلا يعود إلا بعد يومين أو ثلاثة...

ثم يرنّ جرس الهاتف في البيت، فتجيب أخت أحمد، ويسألها السائل عن أخيها ولماذا لم يحضر اليوم إلى عمله، ويسألها أهو مريض؟ وكانت أخته ـ على بساطتها وسذاجتها ـ تعرف أن مثل هذا الأمر لا يحدث للجنود، وأنه ليس من طباع الجندي، ولا من أخلاقه، ولا بين التعاليم التي يتربّى عليها ألا يعرف عنه أين ذهب، ولا في أي مكان يكون يومياً إلا في الحالات الخاصة والاستثنائية والتي تعتبر من خصوصيات العمل ومن أسراره. وما كانت تعلم أن هناك وضعاً خاصاً يستدعي أخاها أن يتكتم عليه وأن المستغرب أن يسأل عنه القوم الذين يعمل معهم، والذين يفترض فيهم ـ وحدهم ـ

تحديد مكان وجوده وقت العمل، والمهمات التي يقوم بها، ويعرفون ما جرى له...

وعندما وصلت أخت أحمد إلى هذه المرحلة من التفكير، سارعت إلى أمّها فأخبرتها بما سمعت. وسارعت الأم فأخبرت أبا أحمد بذلك، ثم عرف بالأمر أخو أحمد... وراح الجميع يتحرّون عن الأمر، ويجرون من الاتصالات ما يرون أنه قد يكون مفيداً ليدلهم على مكان وجوده... ولكن دون جدوى.

وكان أكثر المهتمين بالأمر رؤساء أحمد ورفاقه... واتخذ البحث عنه طريقه إلى الإجراءات الرسمية في سرية، وحذر، وتبصّر... لأهمية هذا الأمر، وخوفاً من أن تكون في الأمر جريمة، أو حادثة غير عادية...

حتى إذا انشغل الناس جميعاً في التفتيش عن أحمد، وفي كل مكان، وعند كل صديق، في البرّ والبحر، وفي كل زاوية وغابة و...تستخدم في هذا السبيل كل الوسائل الممكنة، وتسخر أجهزة أمنية بكاملها لمتابعة هذه القضية، ولا يعثر لأحمد على أثر، ولا يعرف أحد شيئاً يمكن أن يوصل إلى الخيط الذي يقود إلى المعلومات المفيدة واللازمة، كان لا بد أن يخرج هذا الأمر عن نطاق المألوف، لتنشغل به الدولة كلها، وتتصل بالإخوان، والجيران، والأجهزة الأمنية في الدول المجاورة... وتتضافر الجهود لتنتهي بعد أيام ثلاثة من البحث بأخبار مفادها أن أحمد قد قطع الحدود اللبنانية، ودخل سورية، ومنها خرج ليدخل

الأردن... ثم يوقف عند إحدى نقاط التفتيش بعد أن كانت قد وصلت المعلومات بشأنه... ويعاد إلى لبنان...

ويجري تحقيق في كل ما جرى، واستجواب... ويستمر الأمر طويلاً مع أحمد ليخرج بعد ذلك على المحققين بالرواية الآتية:

منذ أن بدأت أدرك معاني الحياة، وتفتّحت عيناي على المجتمع، وشاهدت بعيني ما كان يشيع بين الناس من العادات، وما يحملونه معهم من تراث قديم قديم، وعرفت ما تخفي نفوسهم من شعور بالاضطهاد قديم، وكبت دائم، فلا يكادون يخلصون من مشكلة حتى تواجههم مشكلة جديدة، ولا يكادون يخلصون من همّ حتى ينزل بساحتهم همّ آخر، ولا يكادون يخلصون من حاكم مستبد ظالم حتى يبتليهم الله تعالى بحاكم أشد ظلماً، وأصعب مراساً، وأقوى في الشر، وأقل في طاعة الله من كل الذين سبقوه... فيقتلون، ويشرّدون في البلاد، ويقتل أئمتهم وعلماؤهم، وتحاك ضدهم المؤامرات، وتصادر أموالهم، ويمنعون حقوقهم، ويُحرّم عليهم حتى دخول المساجد، وتلاحقهم الفتاوى بأنهم كفار وأن «نساؤهم حلال، وأموالهم حلال، ودماؤهم حلال...» وتنشأ باسمهم دول لا تكون لهم، وتقوم باسمهم الثورات، وعلى مبادئهم، ثم لا تلبث أن تنحرف، فتنساهم، وتسيء إليهم... ويصبر الناس ويصبرون، حتى يضيق الصبر بهم ذرعاً... وينفسون عن كربهم بكاءً، وندباً، ولطماً للصدور... في مواسم تستمر مدة من الزمن، ثم تصير هذه كلها أسلوب حياة يعيشون عليه كل

العصور، يندبون موتاهم، وشهداءهم، وأئمتهم أيضاً، حتى في أفراحهم، وحتى صار عندهم أفضل ما يبدأ به الإنسان مشروعاً أو عملاً أن يبدأه بمجلس عزاء، يذكر فيه الإمام الحسين عليه السلام وصحبه، وما لقوه في كربلاء، وما قبل كربلاء، وما بعد كربلاء... ويتأسّون بآل الرسول عليهم السلام في مصائبهم وأحزانهم... ويلجأ بعضهم إلى الكتب يستنطقها ليجد فيها ما يعد بالشر قبل الخير، وما يطلب الثبات على العقيدة، والاقتداء بآل البيت، ويجعل المودة لآل البيت هي الخلاص، وهي ما أوصى به الرسول الكريم على نحو ما جاء في كتاب الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

ويتابع أحمد: وكنت أقرأ القرآن، وأطّلع على التفاسير، فأجد في بعض السور ما يؤكد ما رسخ في ذهني، واستقرَّ في يقيني... وأقرأ الحديث الشريف، فأجد فيه صورة للمستقبل يرسمها الرسول الكريم لما سيكون من أحوال المسلمين، ومن أحوال آل البيت عليهم السلام. كما يرسم صورة لمستقبل الدهر الآتي وما سيكون فيه من الأحداث والفتن، يحذر من بعضها، ويقدم النصح والإرشاد، ويتحدث عن «مهديّ» هذه الأمة، ويصفه كأنه يراه، وينصح الناس باتباعه والوقوف معه... ويصير ظهوره خشبة الخلاص لهؤلاء الناس جميعاً، ويصير انتظاره عقيدة لا يجوز أن يحيد عنه الناس. ويتفق المسلمون جميعاً على هذه القضية، ويصير أمل قومي وأهلي أن يكون الفرج قريباً، ويدعون الله تعالى أن يجعله كذلك. ويصير

الانتظار ملاذاً للمقهورين والمغلوبين على أمرهم، والصابرين من الناس.

وأجد أن الكتب قد وصفت مقدمات الظهور فأكثرت من وصفها، وتحدثت عن الدلائل فأوضحت أشياء كانت في عالم المجهول وكأنها تراها ماثلة للعيان... وقرأت فأكثرت من القراءة، ونظرت فرأيت ما يعاني المسلمون في العالم من التخلف والضعف، وتشتت القوى. كما رأيت طغيان الكفر وتقلص الإيمان، ورأيت شرع الله لا يعمل به، ورأيت، ورأيت... وقارنت بين ما رأيت وما قرأت فإذا هذا يشبه ذاك، ورسخ في ذهني أن هذا العصر الذي نعيش فيه هو العصر الموعود الذي ذكره النبي ﷺ، وتحدثت عنه الأئمة عليهم السلام، وروت عنه الكتب... فلجأت إلى شيخي أسأله عن كل ما همّني معرفته، وعن كل ما يشغل بالي، فوجدته هو الآخر يعيش القلق الذي أعيش، ويفكر كما أفكر، وينتظر كما أنتظر خروج إمام عادل يقيم الدولة التي تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تكون قد ملئت ظلماً وجوراً، ويقوم معه المسيح، ويؤيده الله بنصره، وتزول دولة الكفر المتمثلة في إسرائيل اليوم، وكل حكم ظالم، لتحلّ محلها شريعة الله...

وعرفت أنه سيكون مع المهديّ عليه السلام رجال بعدد رجال بدر، يقومون معه بنشر دعوته، ويدافعون عنه وعنها... فكنت أعيش ـ كغيري من الناس ـ على أمل أن يجعلني الله تعالى من أنصاره وأتباعه، ومن المقاتلين بين يديه، ومن المستشهدين في سبيله، وفي

سبيل إعلاء كلمة الله، وإقامة دولة العدالة. وانتظرت، وطال بي الانتظار، وكنت أقضي الليل متعبداً الله، خاشعاً، أشعر في نفسي الذلة أمام الله، والرغبة في طاعته ونصرة وليّه، وأعددت نفسي الإعداد الذي اعتبرته لازماً لمواجهة هذه المرحلة، عسى أن أكون بين جنده المقرّبين...

وفي إحدى الليالي، وبعد أن طالت بي فترة التعبّد لله تعالى، والقراءات، والدّعاء... حتى غفوت، فاتكأت على وسادة كانت إلى جانبي، آملاً أن آخذ قسطاً من الراحة، وأعود ـ بعد قليل ـ لأتابع ما تبقّى أمامي من العبادة... وما دريت كم امتدّ بي زمن النوم، وما أيقظني من نومي إلا الخوف من أن ينقطع ما كان قد حضرني في النوم من المشاهد التي كانت تتمناها نفسي، وتتوق إليها، فأمسكت بذراع ذلك الإنسان الذي كان واقفاً أمامي، وامتدت يده إليَّ، فأمسكتني من كتفي، وهزّتني في رفق، وسمعته يقول لي: «قم يا أحمد، فقد آن الأوان، وانطلق الركب... ونحن ننتظرك في موقع كذا، فأقدم علينا، ولا تتخلف عن الجهاد...».

وأسكرني ما كنت أسمع من حلو الكلام الذي كنت أعِدُ به نفسي أن أسمعه يوماً ما، وأسكرتني لذة اللقاء مع من أحبّ، وفي سبيل الله، وأسكرتني رؤية ذلك الوجه المشرق الذي يطفح نوراً، ورأيت نور ذلك الوجه وكأنه يمتد كما يفعل نور الشمس عند إشراقها... وما أتاحت لي حالة السكر التي كنت فيها من أن أفكّر في شيء بعدها أبداً، واستعظمت أن يأتيني التفكير بما يثبط عزيمتي

فأخسر ما كنت أرجوه وأتمناه من الانخراط في جيش الإمام المنتظر... «فأسرعت إلى ثيابي أرتديها، ولا ألوي على شيء، وتركت كل شيء على حاله، وانطلقت إلى حيث أمرني سيدي بلقائه... ولكني، ويا للأسف ما وصلت، وما تركتموني أدرك غايتي وأنال مرادي، فضاع مني كل شيء...».

ويسكت أحمد والدموع تملأ عينيه، وتسيل على خدّيه مدراراً، ويشيح بوجهه عن الناس، ويغمغم بكلمات لا يفهم منها الحاضرون شيئاً. ويكون صمت طويل، وعميق، لا يقطعه إلا أحد العسكريين الكبار بصوته الأجشّ، وبحذائه يقرع الأرض فيسمع صداه في الرواق الكبير، ويتقدم فيدخل إلى المكان، ويغلق الباب خلفه، ولا يعلم أحد بما يجري بعد ذلك.

ـ ١٢ ـ

ويبقى أحمد في ضيافة قيادته أياماً، ثم يخرج منها ذات يوم، دون أن يعلم أحد شيئاً عما جرى له... كان الجميع يعرفون أن تحقيقات كثيرة أجريت مع أحمد، وأنه استجوب مراراً، ولكن أحداً لم يعرف تفاصيل هذه التحقيقات وهذه الاستجوابات. إلا أنه عندما خرج من المكان الذي كان «يستضيفه» بدا عابس الوجه، مقطب الجبين، معتلّ الصحة، عصبي المزاج، شديد الانفعال... ولم يردَّ على أي سؤال طرح عليه، وتولّت مجموعة من الجند نقله إلى داره في سيارة عسكرية، ثم وضع بعض الجند «في خدمته وتحت تصرفه». وما غادر أحمد ذلك المكان إلا مرتين، وبرفقة أولئك الجند الذين كانوا «يخدمونه ويسهرون على راحته»، وفي سيارة عسكرية، وإلى القيادة بالتحديد. وكان يعود منها بعد أن يقضي فيها وقتاً، ويدخل داره، ولا يغادره بعدها، وجنوده من حواليه.

واستمر الأمر على هذا النحو أشهراً، ثم انسحب الجند وبقي أحمد في داره، وكان يقضي معظم وقته في المطالعة والقراءة، ومتابعة الأخبار من الصحف اليومية والإذاعة، كما كان يخصص قسماً كبيراً من وقته للعبادة، وصار إذا سجد يطيل السجود، وإذا دعا ربه يستفيض في الدعاء، وتنتابه عندها حالة من الذهول ينقطع

فيها عن الدنيا فلا يرى أحداً حوله من الناس، ولا يسمع لأحد منهم صوتاً، ويشغله عن ذلك ما هو فيه... وتجيش عاطفته، ويشتد انفعاله، فيبكي بدموع تبلل لحيته السوداء التي أطلقها فلم يصلت عليها الموسى طيلة هذه المدة، وكأنه نسي عادات العسكر و«طقوس» العسكرية... حتى إذا عاد إليه شيء من الوعي تابع أركان العبادة، ثم جلس ليتشهّد ويسلّم، ويكثر من الصلاة على النبي وآله عليهم السلام. ويكثر من الاستغفار والتوبة... حتى يعود هادئاً، وتستقر حاله على شيء من الغبطة ترتسم على وجهه، وشيء من النور يضيء وجهه، ودعابة قليلة مؤدّبة يتعامل بها مع أهل بيته الذين كانوا يحيطونه بكل عناية ورعاية. ولكن في حذر وخوف من أن تعود عليه هذه العناية والرعاية وشدة الاهتمام بما يضرّه، ولا يفيده، ويعكر صفوه، ويؤرق حياته، وهو الإنسان القوي الذي يأبى أن يسمع كلمة إشفاق، كما كان يأبى أن يكون موضع اهتمام من أحد، لأنه يرى أن مثل هذا الاهتمام يناله من يحتاج إليه من المرضى وأصحاب العلة، وأصحاب العاهات، والضعفاء، وهو ليس منهم...

وتتحسن حالة أحمد تدريجياً، ويبدأ بالعودة إلى حياته الطبيعية، كما يبدأ يتخلص من الانفعال والجو المتأزّم الذي كان يعيش فيه... وكانت أولى الخطوات له في هذا المجال أن عاد يزور شيخه في مسجده، ويصلي الفروض جماعة خلفه، ويستمع إلى خطبه وإرشاداته... وكان شيخه وأستاذه يعلم بكل ما جرى له

فيداريه كثيراً، ولا يقول كلمة واحدة يعرف منها أحد أنها توبيخ أو تأنيب أو ملامة.. أو أن فيها إشفاقاً أو مواساة وتخفيفاً عنه، وإن كان أحمد يشعر أنه المقصود بكل كلمة يقولها شيخه، وأن الحالة التي هو فيها هي التي توحي لشيخه بكل ما يقوله، وإن كان لا يستطيع أن يحدّد موقف شيخه، ولا يستطيع أن يفسّره ما إذا كان نوعاً من المراعاة والتهدئة لعواطفه، والمداراة لواقعه، أو أنه اعتذار له عن شيء من المسؤولية غير المباشرة التي أوصلته إلى حيث وصل، عندما كان لا يقتصد في الإرشاد والنصح، ويصل أحياناً إلى درجة الإثارة وتحميل المسؤولية لأحمد وأمثاله ممّن يملكون القدرة على التغيير. ولا يفعلون شيئاً، ولكنه كان لا يقول شيئاً، وكان يكفيه أنه لا يسمع ملامة تشعره بالغلط، أو بالذنب، أو بقلّة التبصّر في عواقب الأمور والتسرّع... أو بالفشل بصورة عامّة، لأن ما آلت إليه حاله هو الفشل مهما سمّاه الناس، ومهما اختاروا له من الصفات، ومهما نعتوه به من النعوت.

وتستمر حالة أحمد في التحسّن، وتبدأ حياته بالعودة إلى طبيعتها يوماً بعد يوم، وتزداد مخالطته للناس، فكان يطيل الجلوس بينهم، والتحدث إليهم، ورواية الأخبار وما يحفظه من الطُّرف والملح، والفكاهات والنوادر... وشيئاً فشيئاً صار أحمد يحدِّث الناس بما كان يحظره على نفسه سابقاً، ويخبرهم ببعض الأخبار من أيام الجندية، ولا يتورع أن يعرج على ما جرى معه فيتحدث عنه.

ولعله كان في بعض المرات يتمنى أن يسأله الناس عن ذلك

ليجد مجالاً للدفاع عن نفسه وتبرير ما حدث معه، وكثيراً ما كان يسترسل في الحديث والعرض، وسرد الأخبار ليخرج نفسه من قفص الاتهام الذي وضعها فيه.

وأول علامات التعافي التي بانت على أحمد أنه خرج من منزله، وقلل المكوث في المسجد، وحدد مواقيت للقاء شيخه... وانصرف يبحث عن عمل، مستخدماً لذلك ما كان عنده من مهارات وقدرات علمية وفكرية وعملية... ولم يطل به البحث حتى وجد عملاً يناسبه، وحاول أصحاب المؤسسة التي بدأ يعمل فيها أن يستفيدوا من خبراته، ففتحوا له المجال واسعاً، وأغروه براتب شهري كبير بخلوا به على سواه... وانتظمت أحواله بعد مدة من الزمن. واستطاع أن يخرج من الحالة التي كان فيها قديماً خروجاً تاماً ونهائياً، وصار يتصرف مع أهله، ويتعاطى مع الناس بروح جديدة، وكأن شيئاً لم يكن، أو كأن أية حادثة لم تحصل في حياته، هذا في الظاهر، أما في الباطن فما كان أحد يدري بما كان يفكر فيه، ولا ما الذي استفاده من هذه التجربة التي مر بها، وهل أنه ما يزال على مبادئه وأفكاره وقناعاته، أو أن تغييراً ما قد طرأ على ذلك كله؟

وفكّر أحمد في الزواج، فإلى متى يبقى أعزب، وهو يعرف أن «من تزوج فقد أحرز نصف دينه»، وهو يريد أن يحصل على كل شيء. ولا يريد أن يفوته شيء من الدين أو الفضل أو الأجر والثواب... وراح يسعى في سبيل ذلك، مستعيناً بأهله، وبعض

المقربين إليه، حتى إذا استطاع أن يتعرف إلى الفتاة التي تناسبه في فكره وعقيدته، واختارها ممن تلتزم بما كان يلتزم به من المفاهيم، وفرض عليها شروطه فقبلتها جميعاً... وعندما عقد له عليها، وجاء الناس وبعض رفاقه يهنئونه بهذا الزواج الذي يتمنونه أن يكون سعيداً، وبالرفاه والبنين... بادر أحمد أحد المتمنّين له بالقول: أريدهم عشرة لا أقل. حتى إذا أبدى من يستمع استغرابه من قوله، إذ أن الوقت في نظره لا يحتمل عائلة من هذا النوع، وبهذا العدد، وأن زمن العائلات الكبيرة قد ولّى... أجاب أحمد: أنا أريدهم خمسة لي وخمسة نذرتهم للقضية، وسوف يحملون عنّي ما كنت أفكر في حمله من المبادىء والأفكار، ولن يفشلوا جميعاً في تحقيق المراد، وإن هم فشلوا في المهمة فلن أبخل بالخمسة الباقين، أدفع بهم إلى الميدان، وأبدأ بنفسي، وأقودهم جيشاً إلى حيث يجب أن تصل القضية التي آمنت بها، وسعيت إليها، وما زلت أعمل على نصرتها ونجاحها... وعسى أن يأتي اليوم الذي يتحقق فيه ما أتمناه على يديّ، وأيدي أبنائي، وكل هذا الجيل الجديد الذي ستكون ملقاةً على عاتقه مهمات كبيرة.

وأصاب الذين كانوا يسمعون ما يقول أحمد شيء من الذهول، وران صمت لم يستمر طويلاً، شردت فيه الأذهان في كل اتجاه، وأيقن الجميع أن أحمد هو أحمد الذي يعرفونه، وأن الإخفاق في مهمة أولى ما كان خسارة نهائية، ولا ثبط عزيمته، ولا ثناه عما يريد، وبعد الإخفاق يأتي النصر، والمهم ألا ييأس الإنسان... وما

استغرب السامعون كلاماً من هذا النوع يصدر عنه، إذ أنه بمثل هذا يتحدث الجنود، فكيف إذا كانت العقيدة العميقة ترفد الجنديّة بالمفاهيم والقيم؟

- ١٣ -

وتمضي الأيام، ويرزق أحمد أولاداً كثيرين، وهو بهذا يحقق حلمه أو يكاد، ويعمل على تربية أولاده خير التربية، ويعدّهم أحسن الإعداد. وكان هذا الإعداد يتمثل في أمرين اثنين: في أن يؤمن لأولاده تعليماً سليماً، على المبادىء الصحيحة، والعقيدة المستقيمة، ثم أن ينشئهم تنشئة الرجال الأبطال، فيقوّي أبدانهم، ويعلمهم كل ما يحتاجونه من فنون الحياة، وقد وضع نصب عينيه قول الرسول الأعظم ﷺ: «علّموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل». أما في الأولى، فقد اختار لأولاده أفضل المدارس، فأمّن لهم بذلك أفضل العلوم، وما كان بينهم مقصّر في دروسه، ولا متلكّىء عن طلب العلم، بل كانوا من البارزين المجلّين بين رفاقهم، وكانوا مضرب مثل في الدرس والاجتهاد. واستكمل أحمد هذه المدرسة بمدرسة أخرى أقامها في منزله، وكان يشرف عليها بنفسه، ويستعين بمن يجب أن يستعين بهم لتحقيق ما يريد، ويشدّد على تعليم القرآن الكريم، وتجويده، وحفظه، والسنة الشريفة، والحديث الشريف... مما يرى أن على الإنسان أن يتعلمه ليعرف أمور دينه، ويتفقّه فيه... وكان يخصّص أوقاتاً طويلة لتدريس أولاده التاريخ، لا على نحو ما ورد في الكتب «المغرضة»،

وإنما على نحو ما فهمه ووعاه، وأدركه، وخلص إليه من الحقائق، وكان يتولى هو بنفسه تدريس هذه المادة لأولاده. وكثيراً ما تحوّل بيته إلى حلقات دراسة ونقاش، يشارك فيها الكثيرون من صحبه، وأصحاب أولاده، ويبقى أحمد فيها أستاذ الجميع، وإليه تعود الكلمة الفصل في كل قضية مطروحة... حتى إذا استمكن أولاده من العقيدة، ووثق هو من صلابة هذه العقيدة عند أولاده وثباتها، شعر أنه لا بد من خطوة جديدة في مجال التثقيف الديني، فكان يأخذ بأولاده إلى حلقات شيخه، وهناك كانوا يتعبدون كما كان أبوهم يتعبد في شبابه، وكانوا يطّلعون على ما فاتهم الاطلاع عليه من العلوم على يديه...

ما كانت هذه التربية التي «فرضها» أحمد على أولاده إلا لتزيدهم علماً ومعرفة، وثقافة واطلاعاً، وثباتاً على العقيدة، وثقة بالنفس... وما كان لها من تأثير سلبيّ عليهم كما قد يحصل لبعض من يتربّى مثل هذه التربية. ذلك أن أحمد كان يعرف ما يريد، ويسعى إليه بخطوات ثابتة، قائمة على الإقناع والنقاش والجدل، والحوار... خالية من النزوع إلى الشر والسلبيات، وتركّز على القيم... كما تطالب بالحق ولا تفوّته ولا تنساه، ولا تتساهل فيه أبداً، وتسعى إلى الصدق في كل شيء، والابتعاد عن المواربة والخديعة والتأويل في ما هو صريح وواضح، والإذعان للحق والاعتراف به لأهله...

حتى إذا اكتملت هذه العدّة لهؤلاء الأولاد، وجد أحمد أنه

يفترض فيه الانتقال إلى المرحلة الثانية من مراحل الخطة التربوية التي يجب أن ينشىء عليها أبناءه، وهي مرحلة الإعداد لخوض «المعركة» للمحافظة على الحق، ومقارعة الباطل... واستعداداً لليوم الموعود الذي يعيش هو وعائلته بانتظاره، وعلى أمل أن يكون قريباً.

كانت الأوضاع السياسية في هذه الفترة من الزمن قد بلغت مداها من التأزيم في المنطقة كلها. فبعد حرب العام ١٩٦٧ والعدوان الثلاثي على مصر جاءت محاولة احتلال جنوب لبنان من قبل الإسرائيليين في العام ١٩٧٢، ثم تبعتها الحرب اللبنانية في العام ١٩٧٥... ووقع أحمد وأهله وعائلته، وبنو قومه من سكان جنوبي لبنان وما تفرّع عنه من مستقرّات جديدة في أنحاء مختلفة من لبنان، ومن سكان البقاع الذين ما كانت معاناتهم أقلّ من معاناة إخوانهم من أهل الجنوب اللبناني، وما تعرضوا له من تهجير، وإجلاء عن ديارهم وأرزاقهم وممتلكاتهم، لأنها «تقع في أرض الغير» بعد أن قسّمت الحرب لبنان إلى مناطق متفرقة، وأسمت كل منطقة باسم أهلها وسكانها، وفرزت المناطق فرزاً طائفياً... هذا بالإضافة إلى المهانة التي لحقت بالجنوبيين والبقاعيين بصورة خاصة، نتيجة لضياع الزعامة السياسية عندهم في هذه الفترة، وعدم القدرة على التجمع حول المفاهيم المشتركة، وتشتت الشباب في كل جهة واتجاه، ودفع رؤساء الأحزاب بهؤلاء الشباب الذين يبحثون لهم عن دور، كما يبحثون عن ذواتهم وهويتهم.. ليكونوا

وقوداً للحرب، واستبداد الفلسطينيين الذين ما وقفوا في تلك الفترة من الزمن عند حد، واندفعت قيادتهم آنذاك تستغلّ الظروف وتسيء التصرف، وتسخّر كل شيء لخدمة أهواء أشخاص بادعاء الدفاع عن «القضية»، حتى أن الجنوبيين بصورة خاصة كانوا قد اكتووا بنار الحرب، ونالهم من العدو الإسرائيلي الغاشم ما لم ينل أحداً سواهم.

ويسعى المخلصون لإيجاد حلّ لهذه الأوضاع المتوترة، ويسعى أحمد ـ في جملة الساعين ـ للخلاص من هذا الواقع الأليم، حتى يتمّ الاتفاق على تدريب أهل الجنوب على فنون القتال وحمل السلاح، ليصير لهم موقف، وتكون لهم شخصيتهم المستقلة، ويدافعوا بأنفسهم عن أنفسهم، ويصفو انتسابهم لوطنهم وعقيدتهم على حد سواء.

ويندفع أحمد مع هذه الفكرة، ويسعد بتحقيقها سعادة لا توصف، ويبذل في سبيلها ما وسعه البذل، ويقدّم أولاده ليكونوا جنوداً أول يحملون لواء هذه القضية ويرفعونه عالياً. ولا يمكن له أن يفعل غير ذلك، وهو لا يزال يذكر أحياناً كثيرة. وسيحدّث بما يذكر من قوله لرفاقه عند الزواج أنه يريد أن يكون له عشرة من الصبية، يقدم خمسة منهم قرابين للقضية التي يؤمن بها، وقد يقدّم العشرة أيضاً قرابين إذا اقتضاه الأمر ذلك.

وتابع الأولاد تحصيلهم العلمي، كما تابعوا تدريباتهم المختلفة على القتال واستعمال السلاح، وثابروا على حضور ندوات شيخهم

وحضور مجالسه، للاستزادة من المعرفة والعلم في مجال العقيدة والدين. وكأنهم لمّا تخرّجوا من الجامعة كان تخرجهم منها ومن مدارس القتال، ومدارس العقيدة في الوقت نفسه، لينصرفوا بعد ذلك إلى الحياة العملية بكل هذا الزاد العظيم الذي ما كان أحمد يستذكره إلا بدموع تطفر من عينيه، وقد كانت تلك دموع الفرح لأنه أيقن أن ما وعد نفسه بتحقيقه صار قريباً. وأن إخفاقه مرة سابقة في تحقيق المراد لن يتكرر مرة ثانية. وأن انتظاره ما ذهب سدى، وأن «كل آتٍ قريب».

وتهبّ على الناس في لبنان أخبار الثورة المظفّرة في إيران تجتاح الباطل، وتنتصر بالحق، وتدمر هياكل الشيطان، وتقيم للحق دولة طالما حلم أحمد وأمثاله بقيامها... وكان يتابع أخبار الثورة وقائدها قبل أن تحقق انتصارها العظيم، ويؤمن بأن الأسلوب الذي تعمل به هذه الثورة هو الأسلوب الصحيح، وما خطر بباله أن أسلوباً آخر في العمل يمكن أن ينقذ الأمة مما وقعت فيه من الأوضاع المتردية، وأن تصل إلى ما وصلت إليه من التشرذم وحالة الضياع، وأن يحكمها أعداؤها، وأن تستغل ثروتها فلا تكون لأهلها، وأن يتسلط عليها أعداء الدّين ويعملوا على تدمير القيم والأخلاق للقضاء على الأمة... وهو يؤمن أنه لا بدّ من أن ينصر الله المؤمنين على أعدائهم، ولا بد أن تزول دولة الظلم لتقوم على أنقاضها دولة الحق والعدالة. كما كان يؤمن أيضاً بأن أي إنسان عادي لا يمكن أن يقيم مثل هذه الدولة، لأنها دولة تقوم بإرادة الله، ولتمثل هذه الإرادة، ولا يقوم بهذا العمل إلا إنسان معصوم يؤيده الله بالنصر، ويفتح على يديه... وأحمد يعرف أن هذا وعدٌ من الله بأنه ـ جلّ شأنه ـ قد وعد المؤمنين بأن يبعث فيهم إماماً من آل البيت، «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

وحدّد النبي الأكرم ﷺ اسمه، ووصفه بصفاته، وقال فيه ما قال، ممّا يحفظه أحمد عن ظهر قلب، ويؤمن به إيماناً قوياً، ويعتقد به عقيدة راسخة... وهذا هو يسمع كلاماً مثل الذي يعتقده، يأتي من هناك، يتبنى هذه المقولات كلها، ويجعل في دستور الأمة مثل هذه المفاهيم، ويعلنها على الملأ، كما يعلن قائد هذه الثورة المظفّرة أن الحاكم الديني، والموجه الأعلى للثورة هو «ولي أمر المسلمين»، وهو ممثل الإمام المنتظر، وهو يعمل بإرادته، وعلى نحو ما يريد، ويجعل في العقيدة ركناً أن طاعة وليّ الأمر واجبة على المسلمين جميعاً... فهل بعد في الدنيا أسعد منه بما يسمع...؟

كان أحمد يستحضر في ذهنه كل ما مضى من حياته، وما جرى له يوما ما، يوم أمن بما كانت القلة من الناس تؤمن به، ويوم أحسّ أن الواجب يدعوه لأن يكون في الطليعة، ويسلك الطريق الذي تسلكه الثورة الجديدة اليوم، وعلى طريقته الخاصة... وعندما خطا خطواته الأولى في هذا السبيل لم تواته الظروف، فسقط عندما تعثّر في مسيرته... حتى إذا بلغ به الأمر هذا الحدّ، واستبدّت به الذكريات، وآذاه الفشل الذي منى به في دعوته «وثورته» ومسيرته... كان أحمد يبكي بدموع غزيرة تختلط فيها دموع الألم بدموع الفرح، ولكنه لا يستسلم للألم، فيسارع إلى مسح دموعه على خديه، ويحاول أن يبتسم بهجة وحبوراً. فهذا الذي كان يسعى إليه قد انتصر الآن، وما عاد ما كان يفكّر فيه وهماً، ولا «جنوناً» على نحو ما نعته به الناس يومذاك، ولا حديث

خرافة لا يصدقها الكثيرون من المسلمين، ومن أهل ملّته، وكذلك من أقاربه وأخوته وأهل بيته... ولا يتوانى أحمد عن أن يهبط إلى الأرض ساجداً، شاكراً الله، معتذراً عن ذنوبه، مؤمناً بعقيدته، واثقاً أنه على حق، ويدعو أن يثبته الله تعالى على عقيدته التي آمن بها، وأن يساعده على خدمتها، وتثبيتها في الناس، بعد أن استطاع أن يثبتها في أهل بيته، وأولاده، ويعدّهم الإعداد الصحيح ليكملوا الطريق الذي سلكه منذ زمن طويل. وكان يتذكر أن ما قام به من العمل، ما كان إلا تجسيداً لعقيدة عاش عليها أهله وبنو قومه منذ القديم القديم، وأنه وعد من الله تعالى بالنصر والتأييد، بلّغه النبي ﷺ للمسلمين، وجعله جزءاً من رسالة الإسلام، وعقيدة فيهم... ولا يكتفي أحمد بمثل هذه الأقوال، بل كثيراً ما كان يأخذه الانفعال، والاندفاع في أقواله، فلا يقف عند حدّ، ويقول، ويقول، ويدافع عن نفسه مدافعة من حُكم عليه في مرة سابقة، وهو هنا اليوم يقوم بتقديم دفاعه عن نفسه، طالباً البراءة لنفسه، شاعراً بظلم الحكم المتخذ في حقه، خائفاً أن تفوته الفرصة ويصدق الحكم الأول، وألا يقتنع الناس ببراءته، ولا يصدقوه، فتذهب جهوده سدًى... ويخيب أمله...

ويأتي العام ١٩٨٢، ويحمل معه الأحداث الجسام، ويحتلّ الإسرائيليون الجنوب وقسماً من لبنان... ويعيثون في الأرض فساداً، وينكلون بالناس، فيعاني هؤلاء جميعاً، وأهل أحمد وبنو قومه من أبناء الجنوب اللبناني ما لا يعانيه سواهم... ويهرب الهاربون من مواجهة الإسرائيليين، ويدفن بعضهم أسلحتهم في التراب، وتجمع إسرائيل قناطير الأسلحة التي لم تستعمل، ويستخرجون الآليات العسكرية من الكهوف والمخابىء... ويدمر الطيران الإسرائيلي المرافق والبنى التحتية في لبنان، ويترك الناس بدون ماء ولا كهرباء، ولا طعام، وتدمّر أبنية عديدة على ساكنيها... وبرغم كل ذلك يستقبل فريق من اللبنانيين الإسرائيليين بالورود والأرز... ويكون هرجٌ، ومرج، ومجازر، ومساخر... ومقاومة، ومعاناة، إذ أن الذين كانوا يؤمنون بما كان يؤمن به أحمد كانوا يرون أن أول أعدائهم اليهود، وأن مهادنة هؤلاء حرام وجريمة، كما كان يرفدهم شعور وطني عظيم، فهم يحبّون وطنهم حباً لا يوصف، ويتعلقون به، ويرون أنه ملاذهم الوحيد في وقت تنكر لهم كثير من بني وطنهم وممن حولهم من إخوانهم وجيرانهم

الذين ما كانوا يعترفون لأحمد وأمثاله بالفضل الوطني، ويبخسونهم حقوقهم المختلفة، وليس حقاً واحداً لهم على هؤلاء الإخوان.

ويقف «المقاومون» في وجه العدو الإسرائيلي بعد أن صار الجنود الإسرائيليون على مشارف بيروت... وكان هؤلاء ما زالوا «فئة قليلة»، وما زالت قدرتهم على القتال محدودة بحكم قلة التجربة، وحداثة العهد بمثل هذه الأزمات وهذه المواقف، كما أن سلاحهم كان قليلاً، فهم لا يملكون غير السلاح الذي اشتروه بأموالهم، وما كان أحد ـ لا من الداخل ولا الخارج ـ يجود عليهم بشيء منه، في حين أن سواهم كانت تغدق عليه الأموال، فيشتري ما يريد من السلاح، وتصلهم «الهدايا» من كل نوع، حتى امتلأت مستودعاتهم بالأسلحة، وما كانت نيرانهم توجه إلى الأعداء، وإنما كثيراً ما كانت توجه إلى صدور أبناء الوطن... ومنها ما لم يستعمل أبداً، فاستولت إسرائيل على قسم منه كانت تعرف مخابئه، أو أنها هديت إليها، وقسم منه رماه أصحابه في أماكن مهجورة، فاستولى عليه المقاومون يسدّون به النقص الذي كان عندهم، حتى إذا ما حانت ساعة المواجهة، ووجد المقاومون أن الإسرائيليين ينوون فعلاً اجتياح بيروت، عظم عليهم الأمر، وشعروا أن شرف البلاد، وكبرياء الأمة، وطهارة الأرض... سوف يدنّسها الصهاينة بأرجلهم... فاتخذوا القرار بالوقوف في وجه إسرائيل، مهما كانت التضحيات، ومهما كان الثمن الذي سيدفعونه في سبيل ذلك، وإن كان في خلد الجميع أن الانتصار على الإسرائيليين بعيد بعد ما بين

المشرق والمغرب، إلا أن تتحقق المعجزة الإلهية، فتنتصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله، كما حصل في بدر، وفي معركة الأحزاب، وفي خيبر... ثم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾!!!

واتخذ المقاومون ما يمكن اتخاذه من التدابير، وكان بينهم حسين، أحد أولاد أحمد وقد نشأ على ما نشأ عليه والده من العقيدة وحب الفداء، والانتصار للحق، والجهاد في سبيل الله... فتقدّم صفوف المقاتلين، وقدمه رفاقه، وحموه، وساعدوه وائتمروا بأوامره...

وكان الناس يشاهدون ما يجري على أرض المعركة، ويرون بأم العين أرتال الدبابات الإسرائيلية تنزرع على الطريق الساحلي، وفي كل مكان من المناطق المجاورة لبيروت، وبأعداد كبيرة، وبأشكال ما شاهدوا مثلها من قبل... ويسمعون زمجرتها وهي تقصف، ويرونها تقفز في مكانها مع كل طلقة مدفع، كما يرون مدافعها المدمّرة العجيبة تنظر ـ بعين واحدة ـ وفي كل اتجاه، لتختار الموقع الذي تستهدفه، ثم تطلق قذائفها المجنونة التي تشق السماء من الشويفات باتجاه مطار بيروت، عبر الصحراء، فتصفر صفيراً مرعباً، ويخيّل للهاربين من بيروت ومن جحيم المعارك من أهل الجنوب أنها سوف تقع فوق رؤوسهم فتقتلهم وتقتل أولادهم وأهاليهم... فيتركون السيارات، ويحتمون بشجرة هنا، وحائط هناك، وتلة أو صخرة... يظنّونها تدفع عنهم كيد الإسرائيليين، حتى إذا ما سقطت القذيفة في بعض نواحي أرض المعركة،

فأحدثت دوياً هائلاً يصمّ الآذان، ويثير دخاناً، وتراباً، وناراً ملتهبة... تنبسط أسارير البعض، ليس حباً بالحرب وبما يجري، بل لأن هذه القذيفة ابتعدت عنه فما قتلته، ولا أصابت أحداً من عائلته، وإن كان لا يلبث أن يعود إلى انقباضه وحزنه، وحيرته، وألمه... خوفاً من أن تكون هذه القذيفة قد أصابت أحداً من أقاربه أو جيرانه أو أصدقائه أو بني قومه... أو منزله أو متجره... ويزداد حزنه عندما يخطر بباله ذلك الخاطر وهو أنّه قد يعود يوماً ـ إذا قدّر له أن يعود ـ فلا يجد شيئاً مما خلفه وراءه قد سلم من الحرب...

ويصمد المقاومون في مواقعهم أياماً، لا يقدر الإسرائيليون خلالها على التقدم خطوة واحدة إلى الأمام... ويفتنُّ حسين ومن معه من رفاقه «بالتنكيل» بالإسرائيليين ومواجهتهم، ويبدون من المجالدة والجهاد، وفنون القتال، والجرأة ما يثير الإعجاب. وأكثر ذلك ما كان من أمر حسين ورفاقه عندما اقترب الإسرائيليون من مطار بيروت، فأغار عليهم مع بعض رفاقه، وأسر منهم دبابتين نقلتا إلى بيروت، وراح المقاومون يطوفون بها في أحياء المدينة والضاحية الجنوبية لبيروت، ضمن تهليل المهللين، وتكبير المكبرين وغبطة الناس العارمة بهذا النصر للفئة القليلة على الفئة الكثيرة العاتية الجبارة...

- ١٦ -

كان أحمد يتابع هذه الأحداث بكل تفاصيلها، وكانت له مواقف منها، وكان يقف دائماً مع المقاومة والمقاومين، ومع كل من يقف في وجه إسرائيل والمحتلين، «حتى لو كانوا إسرائيل أو غيرها»، فهو يرفض أن يكون بلده محتلاً من قِبل أيّ كان، ولا يتصوره إلا سيد نفسه، يتمتع أهله الحريّة، وينعمون بالمساواة والإخاء، ويتكاتفون ويتضامنون في سبيل ذلك، ولهذا كثيراً ما كان يشارك بنفسه في المواقف التي يقفها المجاهدون والمقاومون، كما يشارك في أعمال المقاومة التي يأتونها، وإذا أتيح له كان يندفع في رواية تلك المواقف وتلك الأعمال، ومنها:

يقول أحمد: كان ذلك خلال العام ١٩٨٢، بعد أن دخل الإسرائيليون إلى لبنان، وتمت لهم السيطرة على بيروت العاصمة، وخضعت لهم كل المناطق اللبنانية، ومنها أيضاً الجنوب اللبناني. وكان الناس الملتزمون بالنهج الحسينيّ في المقاومة، وكراهية الاحتلال، ومحاولة تصحيح المسيرة، ومقاومة الظلم والطغيان، كانوا يتجنبون الإسرائيليين، ويحاولون عدم الاحتكاك بهم، وعدم مواجهتهم، لا عن خوف، وإنما بانتظار أن تنجلي المواقف ويعيد المقاومون تنظيم صفوفهم، وتتبلور الأمور فيعرف الإنسان صاحبه

من عدوّه، ويعرف المقاوم من غير المقاوم. كما يُعرف الوطنيون من غير الوطنيين... وبخاصة أن كثيرين من الناس سارعوا للالتحاق بالإسرائيليين عملاء مأجورين، وانتشروا عيوناً على بني قومهم في كل مكان، وكثرت وشاياتهم ودسائسهم ومؤامراتهم ضد أهلهم وأبناء قراهم ومدنهم... وعاث هؤلاء في الأرض فساداً، وعاث معهم سادتهم الإسرائيليون في طول البلاد وعرضها... الأحرار يصبرون على الضيم، وينتظرون الوقت المناسب للمواجهة...

وجاءت أيام عاشوراء، وما كان الناس قادرين على إحياء تلك المناسبة في الأمسيات والليالي كما كانوا يفعلون منذ زمن قديم، لأن الوضع الأمني كان لا يسمح بذلك، إذ كان الناس يأوون إلى بيوتهم عند الظهر، وقلّما يغادرونها بعد ذلك.

ومرت أيام عاشوراء ثقيلة على الناس هذا العام، متثاقلة في مسيرتها، تجيش فيها الصدور بكل ما هو مكبوت فيها، ولا يتجرأ أحد أن يقول شيئاً. وتشتعل في القلوب نيران الثورة، ويغلي الدم في العروق، ليس حزناً على الحسين وآل بيته فقط، بل انتصاراً لكرامة الإنسان والحق والعدالة، وغضباً من كل يزيد قاهر، وسلطان جائر. حتى إذا ما جاء الليل، همدت تلك النيران التي كانت تلتهب بها نفوس القوم، وكثيراً ما كانت تورّيها اجتماعات صغيرة في البيوت، وبين الجيران، ويبقى الأمر محدوداً بحدود الخوف على النفس والمال والولد... من الإسرائيليين، والعملاء، والخونة...

حتى إذا طلع الصباح واليوم العاشر من المحرم وأشرقت معه شمس تشرين المنكسفة المصفرّة التي تبعث الشجا في النفوس، واستيقظ الناس على أصوات المآذن تقرأ القرآن، وتنعى حسيناً، وتبكي السبايا، وتندب القتلى من آل رسول الله وبني هاشم وأصحاب الحسين، وتفور الدموع وتطفر من العيون، يحدّها خوف ورعب من الحاكم الظالم فلا تنبجس أنهاراً، وقد اعتاد الناس في مثل هذا اليوم أن يحضروا عاشوراء في بعض الأماكن، يمثلها أبناؤهم وإخوانهم مشاهد حيّة، ثم يندفعون يلطمون، ويندبون، ويضربون رؤوسهم بالسيوف، ويتضرّجون بدمائهم مواساة لأبي عبد الله الحسين وأبيه عليّ، وجدّه محمد، وأمّه فاطمة... فكيف يمكن لهم اليوم ألا يقيموا هذه الشعائر، وألا يقدّموا هذه المواساة؟! أفيمكن لهم أن يسكتوا في مثل هذا اليوم فلا يسمعوا العالم صوت الاستنكار والرفض لما فعله أعداء الله؟ أو يمكن أن يتركوا محمداً وعلياً وفاطمة وزينب في أحزانهم دون مواساة...

وينظر الناس بعضهم إلى بعض، من الأبواب، والنوافذ، ومن فوق الجدران وعن السطوح، وتحت التينة... وينادي بعضهم بعضاً، ويتداعون للقاء في النادي الحسيني ليروا ماذا يجب أن يفعلوا... وقد منع المحتلّ التجمعات، والتظاهر، وأيّ عمل «يخلّ بالأمن»...

وحضرت قلة منهم إلى النادي الحسيني، يسبقهم شيخ القرية، وأقاموا الشعائر، وسمع الناس ما تعودوا أن يسمعوه في كل عام.

ولكن دماءهم قد فارت هذا العام أكثر ما كانت تفور في أي عام آخر، حتى إذا ارفضّ الجمع، وكانت قد انتشرت بينهم تعليمات بالقيام بمسيرات من مكان كذا، إلى مكان كذا، في كل قرية، على أن يتلاقى الناس جميعاً، الآتون من قرى مختلفة عند نقطة معينة، للقيام بمسيرة مشتركة نحو المدينة، ولكن من يبدأ التجمع؟ ومن يقود المسيرة؟ وماذا يقولون فيها؟ وما الذي يجب أن يردّدوه من الهتافات؟ وأين يبدأون؟ والإسرائيليون وأعوانهم في كل مكان؟!

ويتجمع بعض المقاومين في مكان ما من القرية، يقول أحمد، وما كنت أرضى أبداً أن يستأثر أحد بشرف التحرك، أو أن يبدأه قبلي ولا يكون لي يد فيه، فدعوت ابني حسناً، وفي نفسي ما فيها من الخوف عليه، وفيها ما فيها أيضاً من حب الحسين، ومن القناعة أن هذا اليوم هو يوم الحسين لا سواه. ثم ألست أنا الذي نذر نفسه وأولاده لنصرة الحسين ومبادئه، وأهل البيت؟ ولمّا استبد بي الخوف على ولدي، طردت هذا الخوف منتفضاً على الجبن الذي كاد ينتزع مني مبادئي، ويأخذ مني شرف الأيام الماضية، وأيام النضال، والانتظار ليسود الحق الأرض، ويزهق الباطل.

وتذكرت علياً الأكبر، والقاسم، والعباس... وجميع من ساهم في عاشوراء. وتخيلت الأحداث تتجدد أمامي في هذا اليوم، ودعوت ابني للاستشهاد بين يدي أبي عبد الله الحسين، وقد كنت نذرته للفداء قبل أن يولد، فسارع ابني هذا إلي، فقبّلته والدموع تملأ عينيّ، وما قلت شيئاً، وما كان بحاجة إلى أن يسمع مني شيئاً

أقوله، بل عرف مما أنا فيه، ومن الجوّ المسيطر في ذلك اليوم، ومن الدموع المتلألئة في عينيّ أنني أدعوه لقيادة المسيرة، فانطلق في ثلاثة من الرجال في بادىء الأمر، ما عرفتهم، وانطلق لسانه بأعلى صوته يندب حسيناً، ويلطم على صدره، ولم يلبث طويلاً وحيداً في الساحة، إذ لم تمض إلا ثوان حتى كان الكثيرون من الناس يندفعون نحوه، ويفعلون فعله، وهو يندب ويجود، وهم يرددون خلفه ما يقول. . . وتقاطرت النساء من كل مكان، وانضمت إلى المسيرة مع الرجال. . .

وبرغم تلك الجرأة النادرة كان الخوف من الإسرائيلي ما زال يحتل جانباً من النفوس، متمثلاً في التفاتات وجلة في كل اتجاه. وترقب أن يأتي الإسرائيليون من أي شارع، أو من أي طريق، و«الحذر مطلوب حتى لا يقع أحد من هؤلاء الأبطال أسيراً في يد أولئك اللصوص المجرمين».

وتستمر المسيرة فترة من الوقت تتقدم ببطء، وكأنما كانت تتحرك في مكانها، حتى كثر العدد بشكل ما كان يتصوره أحد، فتقدمت واحدة من النساء تريد أن يكون لها شرف المشاركة، فتدعو النساء إليها، فيلتففن حولها، وتندب أمامهنّ، وهنّ يرددن ما يسمعن في قوة وحماسة. . . حتى إذا «تحرر» الرجال من مسؤولية النساء، وشعروا أنه صار في مقدورهم التحرك بسهولة أكبر، انطلق موكبهم في سرعة أكبر باتجاه المكان الموعود. وكان «حسن» يتقدم الجمع، وهم يتبعونه. . .

ولم يلبث «الكون» كله أن سمع بجلبة هذه المسيرة، وندبها، وبكائها، وعويلها فكانت «عيون» الإسرائيليين أول الواصلين إلى المكان، وحاول بعضهم التدخل في ما يجري طالباً من «المتظاهرين» التزام الهدوء فلا يغضب فعلهم الإسرائيليين، وهنا كأنك أثرت كل مشاعر الناس، فانطلقوا أكثر حماساً وأشد انفعالاً، واحمرّت أعينهم على ذلك العميل، وحاول بعضهم الانتقام منه فولّى هارباً.

ووصل الإسرائيليون بسياراتهم المدرعة، واتخذوا لهم مواقع في بعض الأمكنة وما استطاعوا التقدم من المتظاهرين، ولكنهم اكتفوا بالمراقبة... واستمر النادبون في الندب، واستمر اللاطمون بلطم صدورهم، واشتد حماسهم، واشتد انفعالهم، وارتفعت أصواتهم عالياً، وكانت ندباً عادياً تقليدياً مما سمعه الناس، ويسمعونه في كل يوم، ولكنهم ما كانوا يفهمونه كما هم يفهمونه اليوم، ولا هم تحمسوا لهم كحماستهم له اليوم. وكان وقع الأكف على الصدور العارية، وصوت الجنازير الحديدية تلطم الصدور والظهور موقعاً أعظم إيقاع، وكان النادبون واللاطمون غاضبين أشد الغضب، وكان الناس متفاجئين لما يجري أشد المفاجأة. وكانت دموع المشاهدين تتساقط مدراراً كما لم يحصل من قبل، وامتلأت القلوب غبطة أن يكون الناس ما زالوا بمثل هذا الحماس، وأن تكون العزة والكرامة كامنة في نفوسهم بهذا المقدار، وأيقنوا بأن شعبهم هو كما كان في زمن أبي ذرّ، وفي عهد الشهيد الأول وهو

يأبى الرضوخ ليزيد وآل يزيد، كما يأبى الرضوخ لليالوش، أو لقراقوش وغيرهم من الجبابرة الطغاة... وكانت الصدور التي ألهبتها الجراح، والظهور التي حفرت فيها الجنازير أخاديد أترعت بالدماء أبلغ نذير لأولئك الإسرائيليين، الذين ما استطاعوا البقاء في المكان، فولوا هاربين في سياراتهم المدرعة، ونفوسهم مترعة بالخوف والحقد، وعقولهم تدبّر المكائد للأحرار...

وبعد أن راوحت المسيرة في مكانها مدة من الزمن، وألهبت الأرض والسماء، وبعد أن استعد كل فرد للمواجهة بالأجساد والسلاح الذي كان مخبأ لا يعرف السائل أين، ولا يبوح أصحابه عنه بشيء، وبعد أن قرت عيون اللاطمين والنادبين والباكين بابتعاد الإسرائيليين، واختفاء عيونهم وأعوانهم عن المكان... صرخ حسن فيهم منادياً: إلى الأمام أيها الأبطال... وترأس المسيرة، وقادها، يندب ويلطم، فأثار في الناس حماساً ما بعده من حماس...

وأكملت المسيرة طريقها إلى النبطية ـ إلى ساحة أبي عبد الله الحسين ـ ساحة عاشوراء، بين حماس المتحمسين، ووجل الذين خافوا عاقبة هذه المسيرة، وخافوا على (حسنٍ) ورفاقه، وكانوا يتقدمون منه ويرجونه أن يعدل عن خطته، كما يرجونه أن يطلب من الناس التفرق بسلام، فقد رابهم خلو الشوارع إلا من النادبين واللاطمين، واصطفاف الناس على جانبيّ الطريق في الشارع الرئيسي، الذي كنت ترى آخره من أوله، مفتوحاً لا أحد فيه، ولا سيارة، ولا عابر سبيل... ولعل هذا هو الأمر الذي دفع حسناً

ورفاقه إلى متابعة مسيرتهم إلى حيث يقصدون. ثم أتراهم يخافون من الإسرائيليين ويملأ تفكيرهم قول الحسين عليه السلام هيهات منا الذلّة! كما أنهم كانوا يعرفون أن كل نعمة بهم هي من الله، وقد حصلوا عليها ببركة الحسين، أيُخذل الحسين في مدينته، وبعد كل أياديه البيضاء على هؤلاء، وفي أنسابهم وأعراقهم جميعاً، وفي حاضرهم ومستقبلهم أيضاً؟!...

وتصل المسيرة إلى النادي الحسيني في النبطية، فيطوف النادبون واللاطمون في أرجاء ساحة النادي، ويبدعون في اللطم كما لم يحصل لهم من قبل، كما يبدعون في الندب، وتفيض القرائح بكل مثير...

ثم... يلتفت حسن حواليه، فإذا «أنصاره» قلة تحيط به، وقد ارفضّ الكثيرون من حوله دون أن يعرف سبب ذلك ولا زمن حصوله... فاحتار في أمره، ماذا يفعل بمن معه، وكيف يؤمّن لهم السلامة، ولنفسه؟

أمر حسن رفاقه بالتفرق عاجلاً، والتغلغل بين الأشجار والأضرحة المجاورة ومن الأبواب الخلفية، ومن فوق الأسوار، والنجاة بأنفسهم، وهو لا يرى عدواً، ولا يرى سيارة عدوة، ولا دورية للإسرائيليين... وإنّما تمثل له مشهد مسلم بن عقيل في الكوفة، فصمم على المواجهة بنفسه، وعزّ عليه أن يؤذى أحد بسببه... والتفت فإذا به مع واحد من رفاقه لا غير، كان يتبعه كظله، وجال بصره في كل مكان يفتش عن الباب الذي سينفذ منه

للنجاة مع رفيقه، فإذا به يسمع صوتاً يناديه، ويدعوه لموافاته. وفي لحظة ضعف، استجاب حسن، وأمسك رفيقه بيده، وركض باتجاه الرجل، ودعاه الرجل لركوب سيارة كانت معه ليأخذه حيث يشاء ويتوارى به عن الأنظار. وأوجس حسن ورفيقه خيفة، فهما لا يعرفان الرجل، ولا هما شاهداه من قبل، ولا طلبا منه أن ينتظرهما في ذلك المكان... وأحس الرجل بالارتباك الذي يعاني منه حسن ورفيقه، فاستحثهما على الركوب في سيارته، فامتثلا لطلبه لأنهما ـ في هذه اللحظة ـ وجدا أن لا خيار لهما حتى إذا سألهما سائق السيارة عن منزل كل منهما ليوصله إليه، فكأنما استفاق في نفس كل منهما الحذر الذي كان معهوداً فيه، وأبى أن يدله على منزله، ولكن نزل حسن في مكان ما، بعد أن ابتعد عن العيون، وأيقن أنه صار في مأمن، ونزل رفيقه في مكان آخر... وما عرفا شيئاً عن صاحب السيارة، ولا عرف كل منهما ما جرى لرفيقه، اجتهد الاثنان على أن يتواريا عن الأنظار، حتى تهدأ النفوس، وينسى الإسرائيليون ما جرى في ذلك اليوم، إن كان لهؤلاء أن ينسوا مثل هذه المواجهة!..

ولا يدوم الوقت طويلاً، فلا يمضي أكثر من أسبوع، كان كافياً لأن يطمئن حسن إلى أن الأمر انتهى، كما كان كافياً للإسرائيليين لحبك الخطة كاملة للقبض عليه، فأوقفه أحد حواجزهم، وأخذه مكبّل اليدين إلى مبنى إدارة الريجي في (كفررمان). وهناك بقي مدة من الزمن، وعانى ما عاناه جميع الموقفين في المبنى، الذي تحول

إلى مركز للتحقيقات وتعذيب المواطنين... حتى إذا أطلق سراحه بعد مدة، وظن أن الأمر قد انتهى من جديد، إذا بيد تغتاله في مساء أحد الأيام، وينقل إلى منزله جثة هامدة، ويدفن في وجل، ولا يتجرأ أحد من أصدقائه ومعارفه وأقاربه... أن يحرك ساكناً، ضمن وجود مكثف للقوات الإسرائيلية مع آلياتهم وأسلحتهم الثقيلة والخفيفة.

ويأتي الناس للتعزية، فيفاجئهم ما يرونه من أحمد والد حسن من رباطة الجأش، والوجه الذي يشع نوراً، وطمأنينة النفس، والرضا والتسليم بمشيئة الله... وكان يقول عندما يحدثه أحد عمّا جرى محاولاً تعزيته: وعدت، ووفيت، ولن يرتاح لي بال إلا عندما أفي بالعهد إلى آخره، أفمن ينذر نفسه للإمام يخشى الغَبَن؟ أو من يكن المهدي المنتظر وليّه يزن أعماله بموازين التجار، ويحسب حساب الربح والخسارة؟ إنها تجارة رابحة والله، تلك التجارة التي تكون بين الإنسان وخالقه، ويرعاها ويشهد عليها وليّه، وحامل الرسالة في زمانه...

وتتم للإسرائيليين السيطرة على (لبنان)، ويدخلون بيروت. . . وتنشط سياسات مختلفة لمحاولة إيجاد حلّ لهذه القضية التي شغلت العالم بأسره، وكان من آثاره الضربة قاصمة الظهر التي مني بها مشاة البحرية الأميركية (MAREENS) عند مطار بيروت، وتلك التي دمرت سفارتهم في بيروت. . ثم ما منيت به «القوات المتعددة الجنسيات» التي دخلت بيروت لتخرج الفلسطينيين منها. . . واختلطت الأمور مع بعضها، وتضاربت المصالح، وما عادت القضية مقتصرة على اللبنانيين والإسرائيليين. . . وكان الجنوب اللبناني خاضعاً للاحتلال الإسرائيلي الذي كان جنوده يزرعون الأرض جيئة وذهاباً، في زهو ما بعده زهو، وفي خيلاء ما بعدها من خيلاء. يعيثون في الأرض فساداً في كل مكان، ويعتقلون الناس، وبخاصة الشباب، وينكلون بالأهالي، ويستبيحون الحرمات، ويسرقون، وينهبون. . . وكان ذلك على مرأى من كل الناس ومسمع منهم، وبينهم من تربى على مبادىء الحسين وعليّ، وكان دمه يغلي بالثورة، وتأبى نفسه أن ترى تلك المشاهد فيسكت عليها. . . فتجمع هؤلاء المقاتلون جماعات يقاومون الاحتلال. . . وكثيراً ما كان بينهم أبطال يساوي الواحد منهم جيشاً بكامله، وبفعل

من الأفعال ما لا تقدر عليه الجماعة بأسرها. وكان يختار مساعديه بنفسه، وكثيراً ما كان ينفذ بعض المهمات وحده، وبدون مساعدة أحد، ومن هؤلاء عليّ، الابن الثالث لأحمد، وكان قد امتلأت نفسه بما امتلأت به نفس أبيه وأخوته من كراهية الإسرائيليين، ومحبة الانتقام منهم بعدما كان من أعمالهم المشينة في فلسطين ولبنان، وبعدما قرأه وسمعه من أخبارهم وكيفية إنشاء دولتهم... فرأى أن الوقت قد حان للانتقام، وهو الذي يحفظ القرآن الكريم ويقرأ فيه عن بني إسرائيل في سورة الإسراء: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ويحفظ الحديث الشريف الذي كان يردده باستمرار: «لن تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود... وحتى تقول الصخرة والشجرة للمسلم: يا مسلم إن ورائي يهودياً تعال فاقتله...» ويعتبره أمراً موجهاً إليه، ويعتبر أن وقته قد حان، وهل سيكون وقت أفضل من هذا الوقت لمقاتلة اليهود وإطاعة الله تعالى، والإنابة إليه، وتنفيذ أوامره؟

ويعد علي العدة لقتل اليهود، وتكون بينه وبينهم مناوشات، يروي بعضها أبوه فيقول:

ذات يوم، وقد كان عليّ في الموقع الذي اتخذه لنفسه مع نفر قليل من المقاتلين ممن يثق بهم في سهل «الميذنة» شرقي مدينة النبطية، وهو سهل خصب يمتد عند سفوح جبل الريحان، ويصل جسر الخردلي على نهر الليطاني ـ على سفوح الهضبة التي تقوم عليها قلعة الشقيف ـ وجسر الوادي الأخضر على نهر الزهراني...

وفيه ينابيع عديدة ومياهه عذبة، ويختصر المسافة ما بين أقاصي الجنوب ومنطقة النبطية وإقليم التفاح... وكثيراً ما كانت القوافل الإسرائيلية تمر في هذا السهل متفادية طريق قلعة الشقيف الجبلية، ومختصرة المسافة إلى مراكز تواجد القوات الإسرائيلية في «العيشية» و«الريحان» و«تلة السويداء»، و«تلة الطهرّة»... وكان عليّ قد صمم أن ينتقم لأخوته، ولكل شهيد قتله الإسرائيليون، واستشهد في سبيل الوطن والقضية. وراح يضع الخطط للكيد للإسرائيليين والإيقاع بهم، وهو أدرى بشعاب المنطقة وطرقها ومنفرجاتها، يعمل أحياناً وحده، وأحياناً يستعين بالمقرّبين منه من المقاومين... وكان قد عثر على مجموعة من الأسلحة والذخائر من كل الأنواع تركها الهاربون أثناء الغزو الإسرائيلي، فنقلها مع رفاقه إلى مكان «أمين»، وراح يستعملها حيث تدعو الحاجة... وكان قد اصطدم مع الإسرائيليين في مواقع عديدة، ولاحقه الإسرائيليون مرة، وأطلقوا عليه نيراناً كثيفة، فما استطاعوا أن يقتلوه، وإنما أصابت واحدة من رصاصاتهم فوّهة بندقية الكلاشينكوف التي كان يحملها، فشطرتها شطرين في أعلاها، وبقيت البندقية صالحة للاستعمال، وبقي عليّ لا يستعمل سواها، ويعتبر ذلك وسام شرفٍ يفتخر به أن يكون في أوائل المحاربين لإسرائيل والمدافعين عن الوطن.

وتابع عليّ يعدُّ الخطة بعد الخطة، وينفذها، فلا يفشل فيها، لما هو عليه من جرأة وإقدام وعزم وعناد، ولما كان فيه من ذكاء ودراية بأفانين القتال، ومواقع المنطقة وتضاريسها. وكان يعرف أن

لإسرائيليين الذين يقطعون وادي «الميذنة» في آلياتهم، وبتشكيلاتهم المعهودة، يطبقون فنوناً عسكرية بات عليّ يعرفها، وأنهم كثيراً ما يلجأون إلى ذلك النبع في «وادي الميذنة»، ليرتاحوا، ويشربوا، تحرسهم آليات مختلفة...

وكان هدف عليّ أن يقتل أكبر عدد ممكن من الإسرائيليين، ويدمّر أكبر عدد من آلياتهم، فعمد في إحدى الليالي إلى النبع، وأحاطه بسور من الألغام المتقاربة، وترك منفذاً واحداً باتجاه الطريق. واتخذ له موقعاً مع بعض رفاقه في إحدى الشعاب، في الوعر المقابل بين الصخور، وراح ينتظر أن تصل «الطرائد» في الوقت الذي اعتادت أن ترتاد فيه المكان، عند الظهيرة، وقد اشتد بهم العطش، في يوم من أيام الصيف الحارة. فتوقفت قافلة جند على الطريق العام، وترجّل منها عدد من الجنود، واستكشفوا المكان، فلم يجدوا أحداً، فانسلوا ـ في وضع قتالي ـ إلى النبع، وعلي ورفاقه يراقبونهم. حتى إذا اطمأن الجميع إلى خلوّ المكان من «المخربين» على نحو ما كان يقول الإسرائيليون، دفع العطش والحر الجنود الباقين إلى اللحاق برفاقهم، وترك السيارات العسكرية فارغة، وراحوا يتسابقون إلى النبع، ووضعوا أسلحتهم جانباً، وانصرفوا يغسلون وجوههم، ويشربون، ويهزجون...

حتى إذا تأكد عليّ من أن الصيد صار وافراً، ومن أن الحصيلة المقدرة سوف تكون ضخمة وتشفي غليله، أطلق الطلقة الأولى من مدفع هاون كان معه، فأصاب شاحنة للجند كانت متوقفة هناك، ثم

أتبعها بثانية، فأصابت سيارة جيب صغيرة، وثالثة، ورابعة... مما أفقد المجموعة الإسرائيلية توازنها، وتنظيمها... وصار همّ الواحد منهم النجاة بنفسه، وراح يبحث عن صخرة أو شجرة يحتمي بها، وكان كلما حاول اختراق حقل الألغام الذي غرسه علي ورفاقه في المكان ينفجر لغم، فتطير معه الرؤوس والأيدي والأرجل، ويتبعه عليّ ورفاقه بضربات من مدفعيتهم تقطع الطريق، وتسد المنفذ الوحيد المتبقي إلى النبع، وتحول بين الجند وبين سياراتهم... حتى إذا أيقن علي أن جميع من كانوا عند النبع قد أصيبوا، وما عاد يرى إنساناً يمشي في المكان، ولا يسمع صوتاً، واطمأن باله إلى أن تلك العملية كانت في غاية «التوفيق»، أمر رفاقه بالانسحاب والاختفاء من ساحة المعركة إلى حيث لا تصيبهم نيران العدو الذي يلجأ في مثل هذه الحالات إلى «تمشيط» المكان، وبحيث لا يراهم الطيران الحربي الذي ينطلق عادة بعد مثل هذه العمليات للبحث عن المقاومين، وإنما يبقى في مقدورهم مشاهدة ما يجري في مكان المعركة...

وتقرّ عين عليّ بالحصيلة، ولكن دون أن يشفي غليله، ويبقى في أعماقه شعور قويّ حار بالانتقام، ورغبة في قتل الأعداء، والثأر لكل الشهداء. حتى إذا كان اليوم التالي، وكان عليّ قد سارع ـ في الليل ـ مع رفاقه إلى المكان واتخذوا لهم موقعاً آخر في مكان أشد تحصيناً من المكان الأول، عند جسر الوادي الأخضر، وهو جسر ضيّق، كثير التعاريج يتحتم على الإنسان الذي يمر عليه أن يخفف السير، بحيث تمكن إصابته بسهولة...

وجاء الإسرائيليون في سياراتهم العسكرية، وفي صلفهم وكبريائهم، وخوفهم أيضاً... فمرت بالمكان سيارة جيب فيها عسكريان، نظر إليها عليّ فما وجد فيها وفي قتل من بداخلها ما يشفي غليله، فما أراد «أن يوسخ يديه» بها، فتركها تمر... وتبعتها سيارة نصف مجنزرة، فيها عدد قليل من الجند، فما وجد فيها عليّ ما يشفي غليله أيضاً، وكلّف بعض مساعديه بمراقبة السيارتين، والتصويب نحوهما، وبقي ينتظر وصول الشاحنة الكبرى التي كان على يقين من أنها ستأتي، لأنه كان قد صار على علم بطريقة الإسرائيليين بإدارة الأمور... ولم تتأخر هذه الشاحنة بالوصول إلى المكان، ولعله كان قد ساور من فيها شعور بالأمان بعد أن سبقتها السيارتان الأوليان ولم يتعرض أحد لهما بسوء، وما إن صارت قريبة من مكان تواجد المجاهدين المقاومين، عند منعطف الجسر حتى سارع عليّ بنفسه إلى رميها بقذيفة صاروخية أصابتها إصابة مباشرة، فسقطت من على الجسر إلى الوادي واشتعلت فيها النيران، وقتل كل من كان فيها، وكان فيها جند كثير. وفي الوقت نفسه بادر رفاق علي إلى إطلاق النار على السيارتين السابقتين، فأصيبا إصابتين مباشرتين، وقتل من كان فيهما... وفي سرعة كبيرة انسحب المقاتلون المجاهدون، إلى شعابهم، وعاث الطيران الإسرائيلي على الأثر فساداً في الجو، وعلى الأرض، فاشتعلت السماء بالبالونات الحرارية، لأنها كانت تخشى رمايات المجاهدين، وبالقذائف من رشاشاتها التي كانت تمشط الأرض لعلها تقتل ولو واحداً ممن كبدوا العدو هذه الخسائر.

ويستمر أحمد يروي عن عليّ روايات يفتنّ في صوغها، وينفعل في الحديث عنها انفعال من أخذته نشوة النصر، فلا يسكت، ويتحدث عن تعرف الإسرائيليين إلى علي بعد وشاية عليه جاءت من أحد أقاربه، ومحاصرتهم له في منزله، وهربه منهم، وخلاصه من الطوق الذي أحكموه حوله. كما يتحدث عن مواجهاته للعملاء وتهديداته لهم، وتصيدهم واحداً بعد واحد... حتى تمكن منه الإسرائيليون فقتلوه في حرش الريحان، وكان في مجموعة من رفاقه يعدّون العدة لمهاجمة قافلة للعدوّ... ولكن... يضيف أحمد ـ بعد أن قتل قائد المنطقة الشمالية للإسرائيليين عند جسر الخردلي... يقولها في نشوة ما بعدها نشوة، وفي شعور بالانتصار يخفي وراءه حقداً على العدو، ورغبة في الانتقام لا تشفيها مثل هذه الانتصارات «الصغيرة» كما كان يقول، فهو يعد نفسه بأكبر منها وأكثر... ويعيش على حلم أكبر من هذا كله، حلم أن تزول إسرائيل من الوجود على يد المجاهدين الشرفاء... «أليس هذا ما وعدنا به، وما نعيش في انتظاره»؟

كان في نفس أحمد نهم إلى الأخبار، يتسقطها، ويتابعها بكل طريقة ممكنة: من الإذاعات، ومحطات التلفزة، ومن الجرائد والمجلات... وبخاصة من المجاهدين الذين كان يعرف بعضهم، ويجالسهم، ويحدثهم، ويستنطقهم، ويطرح عليهم الأسئلة... ويسمع الإجابات التي كانت في كثير من تفاصيلها صحيحة، وكان بعضها مبالغاً فيه، يغلفه أصحابه بغلاف من الرغائب والتمنيات التي تشفي جزءاً من الغليل إن لم تكن قادرة على أن تشفي الغليل كله. وما كان حماس هؤلاء بأشد من حماس أحمد، وما كانت غلتهم بأشد من غلته، ولكن غلته لا ترتوي، وهي نار ملتهبة في أحشائه لا يعلم إلا الله ما الذي يمكن أن يطفئها، ولا متى تنطفىء، فكان هو الآخر يفتن في تنميق الأخبار وتزويقها، وصار عنده علم ـ مع الوقت ـ بما هو أكثر إثارة للناس، وأشد تأثيراً في نفوسهم فيركز عليه، كما صار صاحب فن وبراعة في الحديث والرواية، أو أنه صار ممثلاً بارعاً، ومحدثاً لبقاً، ونجماً يرصده الناس ليشاهدوه، ويستمعوا إلى حديثه، ويتواعدون للقائه، ويدعونه إلى بيوتهم، والأماكن العامة ليقضوا معه أوقاتاً طيبة، ويتلذذون بحديثه، وتبلسم أخباره جراحهم، وتنفس عن كربتهم وتذهب بشيء من غيظ

صدورهم... وتجعلهم أشد إيماناً بالموروث من الأخبار والحديث، وأكثر تصديقاً بالوعود، حتى صاروا ـ هم أيضاً ـ مقتنعين بما كان يحاول دوماً أن يقنعهم به، من أن الموعد المضروب صار قريباً، وأن يوم الفرج قد أزف موعده... ويبدأ بسرد الأخبار التي يحفظها عن هذا الأمر. ويجتهد في التفسير، والمطابقة ما بين نص الخبر وواقع الحال اليوم، ويجتهد في المقارنة أيضاً في نوع من الخبرة والدراية... ويستعين على ما يقوله أحياناً بالعلم والمنطق والتاريخ، وهو رجل مثقف أصلاً بثقافة العصر، وصاحب علم ومعرفة، وكان إذا تحدث أعجب، وإذا انفعل أثّر في السامعين، وإذا حاور تفوق، وإذا جادل أفحم...

وكان في أخبار مقاومة أهله من اللبنانيين للقوات الإسرائيلية خير مصدر لأخباره ورواياته، وكانت هذه المقاومة تمده في كل يوم بأخبار جديدة، يسعى أحمد في التقاطها، ولا يتأخر عن إخراجها للناس بأسلوبه وعلى طريقته... ولكنه كانت له من الأحداث الكبرى التي وقعت على أيدي المقاومين ما يطغى على سواه. وما يقف عنده أحمد طويلاً، ولا ينساه، ويستعيده في كل وقت، لأن الأخبار الصغيرة كانت تنسى لطغيان الأخبار الكبيرة عليها، وعدم قدرتها على الصمود في وجه أخبار كانت تشكل فصولاً من ملحمة المقاومة، ملحمة الجهاد التى سطرها أهله فى الجنوب اللبنانى.

كان أحمد يبدأ حديثه بأخبار العملية الاستشهادية العظيمة التي قام بها الشهيد بلال فحص على طريق صور، ثم يتنقل بعدها إلى

حادثة اقتحام مركز الحاكم العسكري في صور، والعملية الاستشهادية التي قام بها المجاهد الشهيد حسن قصير، ويعرج على مقاومة أهل الجنوب وأهل (أنصار) للإسرائيليين ومقاومتهم بالزيت المغلي، ويتابع الحديث عن الموقعة بين الجنود الإسرائيليين والمقاومين في أنصارية... ثم يتحدث عن المواقع الإسرائيلية التي هاجمها المقاومون، وما سطره هؤلاء من البطولات فيها، فيتحدث عن مهاجمة موقع سجد، ومواقع أخرى صارت ذات شهرة عند اللبنانيين لما تمثله من الظلم والقهر للناس، ولما كان فيها من المناعة والحصانة، والتي بالرغم من حصانتها ومناعتها ما استطاعت أن تصمد أمام ضربات المقاومين الأبطال، الذين كانوا يدكونها حيناً بعد حين، ويجوسون خلالهما، ويطأونها بأقدامهم، ويثبتون فيها أعلامهم، ثم يعودون سالمين، وهم على موعد جديد مع نصر جديد، وموقف عزة وفخار مؤزر بالنصر الموعود.

وكان في البطولات الفردية التي أبداها المجاهدون في مواجهاتهم مع الإسرائيليين ما كان أحمد يرويه بكل تفاصيله ودقائقه... ولعل ذلك قد لقي هوى في نفسه لأنه يشبه ما كان يقوم به أولاده الأبطال، من مواجهات مع الإسرائيليين، فكانت رواياته تأتي مشحونة بالانفعال الذي كان ينفس به أحمد عما يجده في أعماق نفسه من حسرة على أولاد فقدهم، وغضبة على الإسرائيليين وحقد عليهم، ورغبة في أن يتحقق الحلم وتنتصر العقيدة...

ولعل من أهم الأخبار التي كان يرويها أحمد ما عرفه من أخبار تنكيل الإسرائيليين المحتلين بالناس في مخيم أنصار، وما كانوا يمارسونه من أساليب التعذيب الوحشي في سجن الخيام... وكان إذا بدأ الحديث عن هذين الأمرين يكاد حديثه لا ينتهي...

- ١٩ -

كان أحمد قد بلغ من العمر عتياً، وقد بدأت علامات الشيخوخة تظهر عليه، مع ما كان يبديه من المقاومة للعجز الذي يصيب الإنسان في مثل هذا العمر. وكان أكثر ما يعتمد عليه في إظهار تلك الفتوة المفترضة، والقوة المحببة إلى نفسه ذلك الصوت الجهوري القوي الذي كان ـ في وقت من الأوقات ـ وحده كافياً ليذلل بعض الصعوبات أمامه، ويجعله يكسب كثيراً من الرهانات، ويتفوق على الأقران. والصوت ـ أحياناً كثيرة ـ سلاح قاطع مرجح لصاحبه في ميادين المبارزة الكلامية، التي كثيراً ما تشكل مقدمة للمبارزات الأخرى. ولكن صاحب الملاحظة الدقيقة كان يكتشف في هذه «الموهبة» من مواهب أحمد خللاً أصابها، عندما تنقطع منه الأنفاس من شدة انفعاله، ويحمر وجهه، وتنتفخ أوداجه، ويتلعثم في كلامه، فلا يبين... وشعر أحمد نفسه بذلك الخلل الذي أصابه، وصدإ الآلة التي يستخدمها في مقارعة الخصوم، وهو من مثل ذلك الوهن الذي صار يحس به كل يوم، ويلاحقه في قيامه وقعوده، وثقل همّته... فتحمل ذلك لفترة من الزمن لا يعلم أحد بدايتها، وإن كان يرى مظاهرها. وكانت زوجته أول الذين بدأوا يكتشفون هذا الوهن الطارىء عليه... فما راعهم الأمر، وإن

أزعجهم، وأرقهم... فهم يرون أن الأحداث التي مرت على أحمد في حياته، وما أصابه من المصائب وصروف الدهر، والنكبات التي حلت به، وأخذت منه فلذات كبده... كافية، لو نزلت على الجبال الراسية لهدمتها، فكيف بإنسان من لحم ودم؟!

ولا يستطيع أحد أن يدعي أن أحمد ما كان يحس في قرارة نفسه بما ظهر للناس من تأخر أوضاعه الصحية والنفسية، وقد استبان لهم شيء من ذلك من سلوكه، إذ أنه ترك ما كان عليه من عادة ارتياد الأماكن العامة، والمجالس الخاصة، ليجود بما عنده من الأخبار، ويدعو إلى ما يؤمن به من القيم، ويعتقده من المفاهيم. فآثر أن يلازم داره، يفتحها للناس، ويستقبلهم جميعاً، وفي جميع الأوقات، ويكرم الزائرين، ويحسن وفادتهم... ويحدثهم بما يعرف... حتى صار بيته بمثابة ديوان يقصده المثقفون والمتثقفون على حد سواء، ومعهم عامة الناس الذين كانوا يأنسون بما يستمعون إليه من الأحاديث والروايات والأخبار، وتمتلىء نفوسهم بالغبطة، فيعودون من عنده حبارى مسرورين، مطمئنين إلى العقيدة، وسلامة الإيمان، وحسن المصير الذي يرجونه، والأجر والثواب عند الله.

ثم انقطع أحمد عن ملاقاة الناس والاجتماع إليهم في داره، ولكنه أبقى داره مفتوحاً لكل من يقصده. وبقي «ديوانه» عامراً، ولكن دون المستوى الذي كان عليه عندما كان أحمد يتصدر جلسات ذلك الديوان التي كانت تمتد من المساء حتى منتصف الليل

أحياناً كثيرة. . . فقد كان لوجوده أثر في إحياء تلك الجلسات، وكان لحديثه نكهة خاصة لا يقدّم مثلها أي وجود آخر، وعندما تساءل الناس عن غياب أحمد، وعدم حضوره إلى الديوان، وطرحوا أسئلتهم على العارفين بالخبايا بعد أن أرقهم ذلك، وجعل الظن السيئ يجد طريقه إلى نفوسهم، سمعوا أجوبة ما وجدوها مقنعة، ولا كافية لشرح حقيقة ما يجري. فقد قيل لهم إن أحمد قد ذهب إلى بيروت في بعض أعماله، ولن يطول به المقام هناك، وهو سيعود بعد أيام معدودة. . . فما صدق الناس هذا الكلام، وقد اعتادوا من أحمد أن يخبرهم بتفاصيل أسفاره، ولا يخفي عنهم شيئاً. وكثيراً ما كان يصطحب بعضهم للذهاب معه إلى بيروت، وإذا عاد كان يقص عليهم تفاصيل الأحداث التي جرت معه. وبكل دقائقها وخصوصياتها، وما كان أحمد يعتقد أن هناك خصوصيات له وحده، وإنما «يجب أن يعرف الجميع كل شيء».

وما عاد أحمد من بيروت بعد الأيام القليلة التي مضت ثقيلة على الناس، وكثرت هذه الأيام. . . إلى أن عاد فجأة، وفي الليل، وعرف الناس في صبيحة أحد الأيام أنه في داره، وأنه في ديوانه يستقبل الناس، فتقاطروا عليه من كل مكان، يطمئنون إلى صحته، وأخباره بصورة عامة، محاولين أن يعرفوا سبب غيابه عنهم كل هذه المدة. . . وكانوا يسمعون أجوبة لا جواباً واحداً، وكانت كل هذه الأجوبة تأتي مختصرة غير مفيدة، وتخفي وراءها أسراراً لا يبوح بها أحمد، وإنما يفضحه ما كان يبدو عليه من الوجوم أحياناً كثيرة،

ونقص في البشاشة التي يقابل بها الناس، وامتقاع في اللون حل محل تلك النضارة التي كانت تبدو في محياه، وشيء من الضيق والمزاج العصبي الذي لم يعتد عليه الناس من قبل يصدر عنه. . . فارتاب الجميع في الأمر.

والحقيقة أن سبب غياب أحمد في بيروت كان بناء على طلب أحد الأطباء الذي قصد إليه أحمد يسأله عن أمور: بعض الخدر الذي بدأ يصيب أطرافه، وحركة من يده غريبة، تنتابه فترة بعد فترة فتنتفض يده في غير إرادة منه. . . وتلعثم يثقل لسانه، ويجتهد في الحديث ليفصح عما في نفسه، فلا تسعفه قدرته على ذلك.

ويطلب منه الطبيب فحوصات متنوعة. وكان أحمد مضطراً للاستجابة إلى طلبات طبيبه، ولكن في صمت، وسكينة، وفي السر أيضاً. فهو لا يريد أن يروع من حوله بتلك الأخبار. وقد بدا له شيء ما يلوح في الأفق، «فأيقن» أن النهاية باتت قريبة. وما كان أحد قادراً على إقناعه بغير ما خطر بباله، ولا هو كان مستعداً للتصديق بما يقوله الآخرون، كما أنه لم يكن مستعداً أن يسمح لأحد أن «يضحك عليه» فيقول له غير الحقيقة. ويؤمله بما لا أمل فيه.

لم يستطع أحمد أن يخفي وضعه عن الناس، إذ سرعان ما بدأت الذاكرة تخونه، كما بدأت تخونه حركة يده فترتعش، وترقص من غير إذن منه، وهو يكابد من ذلك كله، فيحاول أن يخفي عن الناس فلا يقابل أحداً، لأنه لا يريد لأحد أن يراه على تلك الحال.

وكثيراً ما تمنى لو أن يده قطعت فلا تخالفه إلى ما لا يرغب فيه، وما يدل على عجزه، وعدم قدرته على امتلاك نفسه في هذه الأيام، كما امتلكها في كل ما سلف من الأيام الماضية.

وبدأ أحمد يغيب عن المجتمع، أو أنه كان يغيب عن مجتمعه شفقة من أولاده عليه، فهم لا يريدونه أن يكابد مثل ما شاهدوه يكابد عندما يرى الناس. وصار الناس يكثرون من السؤال عنه. وبعضهم كان يلح في السؤال ليعرف شيئاً من أخباره، كما يلح في طلب مقابلته ليطمئن إلى صحته. وقليلاً ما كان أهله يستجيبون لمثل هذا الإلحاح إلا القليل القليل، وللنخبة من أصحابه، الذين كانوا يخرجون من عنده بقلوب متقرحة، وعيون دامعة، وأسف عليه يتصاعد زفرات وترجيعاً، ودعاء بالشفاء، والرأفة والرحمة من الله، وتخفيف المرض، والنهاية الهادئة المطمئنة... أما الذين كانوا لا يستطيعون مشاهدته، فكثيراً ما كانوا يمرون بداره، فيقفون عند أسوار تلك الدار، وعند الباب الرئيسي، ويتوقفون، ولا يدخلون، وتفيض أعينهم بالدمع، وتلهج ألسنتهم بالدعاء، لعل الله تعالى يرأف بصاحبهم ويعفو عنه ويغفر له...

ويطول الأمر على هذا النحو، وتتعاقب الأخبار، وكلها مقلق محزن، ويقفل باب الدار اتقاء السؤال، وسأماً من الجواب الواحد الذي كان أهل الدار يكررونه في اليوم الواحد كثيراً. ويقفر «الديوان» فلا يدخله أحد، ويترك على حاله كما كان في آخر الأيام التي شهدها أحمد فيه...

كانت تمر على أحمد فترات من الهدوء النفسي، يثوب فيها إلى رشده، فتراه في أحسن ما كان عليه في شبابه من الذهن المتوقد. وطمأنينة النفس، وحضور البديهة، وبخاصة عند الفجر، بعد الانتهاء من صلاة الليل التي كان ما زال يداوم عليها، ويقوم بها كلما واتاه ظرفه، وساعدته صحته على ذلك. وفي أحد الأيام، وقبل أن يعود إلى النوم، بعد أن فرغ من واجباته الدينية، استدعى إليه أحد أولاده وكان يأتمنه على أسراره، ويسر له بما لا يقوله لسواه، وأمره أن يجلس إلى جانبه، وأن يستمع إلى ما يقول. قال أحمد: «يا بني، أرى أن الأجل صار قريباً، وما هي إلا أيام معدودة ويسترد صاحب الوديعة وديعته... ووجدت أن أوصيك بأمور، وأريدك أن تسعدني بتحقيقها في نفسك، وأن تساعد أهلك أولاً على تحقيقها، ثم من يقبل النصيحة من الناس، ويسترشدك ويستشيرك في أموره: ألا تعصي الله أبداً، وأن تقوم بالفرائض، ولا تهمل النوافل، فإن فيها من حلاوة المذاق ما يشفي النفوس، والصدور، وتطمئن بها الأفئدة، وتكون بها أقرب إلى الله... وبخاصة صلاة الليل، وألا تترك قراءة القرآن. وأوصيك أن تكون عبداً لله لا لغيره، بكل ما يريده الله تعالى من عباده، وهو لا يريد بهم إلا الخير. كما أريدك أن تبقى على يقينك برجعة صاحب العصر والزمان الإمام المهدي، مهدي آل محمد عليهم السلام... وإذ أنت حالفك الحظ أن ترى طلعته البهية، فكن خادمه الأمين، ولا تفارقه طرفة عين، وأقرئه مني السلام...

ويمسك أحمد عن الكلام ليمسح دموعه، ويتنهد من أعماق صدره تنهدات تعبر عن ذلك الأسى العميق الذي يختزنه صدره، وامتلأت به رئتاه طيلة حياته، ومذ كان صغيراً حتى أشرف على النهاية، يكتبه الأمل مرة، وتثيره النكسات وأحداث الزمن مراراً... حتى إذا هدأ بعض الشيء، تابع حديثه إلى ابنه: وإذا قيض الله تعالى لكم النصر على اليهود، واستطعتم استعادة فلسطين السليبة ـ وسيكون ذلك إن شاء الله ـ ودخلتم المسجد الأقصى... فأقرىء رسول الله صلى الله عليه وآله السلام عني، ثم صل عني هناك في المسجد الأقصى ـ أسمعت؟ في المسجد الأقصى، ركعتين، وادع لي بالرحمة والغفران...

وتغلب الغصة أحمد، وتنهمر من عيونه دموع غزيرة، وتتحول الغصة والدموع نشيجاً يسمعه من أفاق من أهل البيت، فيسارعون إلى غرفة أحمد بقلوب والهة، وكل منهم يحاول أن يعرف ما أصابه، وما الذي يشكو منه... ويخفف عنهم أن يروا ابنه واقفاً إلى جانبه، يهدىء من خاطره، ويخفف عنه ما يلقاه من وجد الشوق إلى الإمام... ويلح الجميع لمعرفة ما يبكي أباهم... فلا يقول شيئاً... وتمضي فترة من الزمن على تلك الحال، حتى إذا تمالك أحمد أنفاسه وجه كلامه إلى جميع من كان في الغرفة، وقال لهم بصوت متقطع، وما زالت الدموع تسيل غزيرة من عينيه: كونوا جميعاً من أنصار الله، بنصرة ابن بنت نبيكم، وإمامكم، صاحب العصر والزمان، وخليفة الرحمن، وشريك القرآن...

ويحاول أحمد أن يكمل موعظته في أهله، فلا يسعفه وضعه، ويساعده الجميع على أن ينام في سريره، ويرتاح، بعد أن وعدوه بأن يفعلوا ما أوصاهم به، وينام أحمد.

وفي فجر أحد أيام الصيف، وبعد أن أذن المؤذن لصلاة الفجر، سمعت من المئذنة جلبة، وصوت، وحديث مقلق، لم يجد الناس مجالاً للاستفسار عنه، ولا لتفسيره... فقد بادرهم الصوت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... ورددها ثلاثاً، وما كان العهد بالناس أن يسمعوها في مثل هذه المناسبة أكثر من مرة، فعرفوا أن أمراً جللاً قد حدث، وأيقن بعضهم أن كارثة قد حلّت. واحتار الناس في ما تكون هذه الكارثة، وخمن بعضهم أن أحمد قد مات، حتى قال الصوت: «انتقل إلى رحمة ربه تعالى أبو الشهداء الأبرار، وحامل لواء المقاومة، وحارسها وحاميها، المؤمن بالله وملائكته ورسله، الذي عاش حياته ينتظر الفرج، ويعد الأيام لظهور القائم عليه السلام، ويعد نفسه ليكون من جنده...

أيها الناس هذا اليوم يلاقي أحمد ربه، مطمئن القلب، قرير العين صافي السريرة.

في هذا اليوم يلتقي أحمد بالشهداء المقاومين الذين سبقوه إلى رحاب الله.

في هذا اليوم يلقى أحمد الرسول الأكرم وآل البيت الذي ناضل

في حياته كلها من أجل أن ينصر قضيتهم، ويكون معهم، ويحقق مبادئهم، اليوم يلقى أحمد الحسين وأنصاره...

فهبوا يا أنصار الحسين، إلى وداع علم من أتباع الحسين...

وأكثر المنادي من مثل هذا الكلام، وأكثر السامعون من البكاء، وكان نحيبهم يسمع في المئذنة، فيتردد مع الفجر، في أنحاء القرية كلها... وما كان السامعون من أهل القرية يملكون أكثر من البكاء، والدعاء بالرحمة، والاستغفار للميت.

وسارع الناس إلى إنهاء أعمالهم للالتحاق بموكب التشييع، ومنهم من أهمل ما يمكن إهماله، ومنهم من عطل أعماله لذلك اليوم...

وكانت لأحمد جنازة فريدة في كل شيء، واعتبر الكثيرون أن ما يشاهدونه من تكريم الناس لأحمد كرامة من الله الذي إذا أحب إنساناً، جعل الناس يحبونه.